مزامير آدم

((١))

مزامير آدم

.

مزامير آدم

تأليف : د. صالح الرحّال.

الطبعة الأولى: ٢٠٠٤. عدد النسخ ١٠٠٠ نسخة.

الإخراج الفني: مؤسسة علاء الدين للطباعة والتوزيع.

يطلب الكتاب على العنوان التالي:

مؤسسة علاء الدين

للطباعة والتوزيع

دمشق — سوريا

هاتف : ٥٦٢٧٠٦٠ - فاكس:٥٦١٣٢٤١

ص.ب :٣٠٥٩٨

مقدمه

هذه المزامير .. التي لا شأن لها بما فعله ويفعله آدم ، ولكنّها ـ ومن جانب آخر ـ هي صدى السقوط المدوّي الذي اختاره الأب اختياراً حاداً ووحيداً، وما زل يجرّب كَبَدَهُ ويستولدهُ ، ليتجلى الطين الصلصال ويتجوهر حقيقة في عينيْ الأب .

إنه من أخلاط هذا الطين ومن أقاليمه كلها، جاء حاملاً ضياعه ووعيه ومأساته وأضداده ، غازياً ومقتحماً هذه الحياة الأرضية التي ارتآها واختارها على طريقة الذراري الذين جاءوا ويجيئون .

هذه المزامير الرَصْدُ، هي تلك الموسيقى والرؤية التي تبحث عن أذن وعين وبصيرة ليتحقّق الاندماج بين الصوت والصدى ويستمر النشيد، نشيد السقوط ..

د. صالح الرحّال

نُجومْ

نَجْمةٌ واحدهْ ،

كانَ يَهمسُ في نفسه :

المسافةُ بيْني وَما بيْنَ نَسْرٍ

سنينٌ منَ الدرْبَةِ المُتقَنَهْ ،

سأُقْنعُهمْ واحداً ، واحداً ،

بِحُسْنِ انتمائي ، وحُسْنِ سلوكي ،

وحُسنِ أدائي ، وحُسنِ انصياعي

لأصواتهمْ في الخَفاءْ .

وسارَ على خُطوة ماكرهْ .

هُناكَ يُؤَسّسُ بيْتاً ، هناكَ . . عَقاراً ،

هناكَ يُداسُ بجزمة سيّده مُفْعَماً بالحُبورْ .

وَحينَ تلامعَ ذاكَ البَريقُ من النَسْرِ ،

يَمشي بِرُتبتِه النْالَها في جنونْ :

غداً . . .

وَأَحملُ سَيْفيْنِ منْ فضَّةٍ وَنُضارْ ،

وَتاجاً على نَجمتيْنِ ، وأُعلنُ

عَبْرَ اجتماعِ القبائلِ ، أَنّي المُذاوِدُ ،

وَالمدفَعُ المعدنيُّ الثقيلُ ،

وَحَوْضُ المَنونْ .

وَيَمضي ، يُكدّسُ أشياءَهُ الدُنيويَّةَ ،

أعلامَهُ ، والوصولَ الذي أدمنَهْ .

هُناكَ على بابهِ عَسكريٌّ ،

يُجيدُ الطقوسَ ، وَيَعرفُ مولاهُ ،

والسَغَبَ الْكانَهُ في صباهُ ،

" خُطاهُ ، المروقَ ، الغباءَ ، الرسوبَ ،

التشرُّدَ ، والمسخراتِ التي

صاغَها ساخراً " ،

وَيصمُتُ كالقبْرِ ،

فِي نفسه : لُقمتي خنجريْ ،

وَ يُشعِرُ مَولاهُ، ما زالَ كَلْباً أمينْ .

وحينَ استوى سيِّداً ،

والقبائلُ جاءَتْ إليه ، تُبارِكُ طَلعتَهُ ،

والوصولَ المَهيبْ ،

أدارَ لها ظَهرَهُ ،

وأدارَ لها صَدرَهُ والنياشينَ ،

وَانحنى، وانحنى ، كَيْ يُرى فَوْقَ

كتفيْه حُلْماً وعُمْراً مُراقْ ،

ثُمَّ في لحظة فاصلةْ ،

قالها بعد صمْتٍ وتَحديقةٍ كالدبابيسِ :

أيُّها المُصطَفَوْنْ ،

سَنمضي بِكمْ مَغرِباً ، ونُغرِّبُ

حتّى نَراها تَغيبْ ،

و نمضي بكمُ مشرِقاً ، ونُشرِّقُ

حتى نَراها تُفيقْ ،

ونزرعُ هذا الفضاءَ

نشيداً لأَطفالنا ،

وَمَداساً لأعلامِنا والخيولْ ،،

ويُنهي .

ويمضي إلى قاعة خُصّصَتْ للكبارْ ،

ولكنَّ شيخوخةً ، وانقلاباً ،

وتلكَ (النجومُ الصغارْ) ،

صَفَعَتْ روحَهُ ،

صفعَتْ تاجَهُ ،

فانتهى في الغُبارْ . . .

جُمْجُمَهْ

جُمجمةٌ كُلُّها عُروقْ ،

حَجاجُها المفتوحُ للأُفُقْ ،

و عَيْنُها الغائرةُ الغضوبْ ،

أحداقُها الحرابْ ،

وشِدْقُها نُباحْ ،

أَسنانُها، على جذورِها جلودُ هاتِهِ

الضَحايا، وفي مَخابئِ الجذورْ ،

تَكدَّسَتْ أرواحُها أنينْ . .

جُمجمةٌ كأنَّها مصيرْ ،

يدورُ حولها الصغيرْ ،

كَما يدورُ نَيْزَكٌ في ذلكَ الصقيعْ .

جُمجمةٌ بها من السُكوتْ ،

ما يملأُ الجبالَ رهبةً، ويملأُ السهولْ

و في دروزها يُعشّشُ الغُرابْ ،

وفي قَذالها يَنامُ (آَصِفٌ، وأُرضُبا ،

وخُشْتُبا ، وخَانْ) (١)

فإنْ صَحا ، إنْ نَطَّ عَنكبوتْ ،

يُدمّرُ البلادَ والعبادَ والسهولَ

والجبالَ والبيوتْ ،

ويحفرُ النعوشْ، ويردمُ الزمان .

جُمجمةٌ طريقْ ،

على يَسارِها الظلامُ والصقيعُ

والدُجى البَهيمْ ،

وفي يَمينها يَشبُّ تَوْأَمانْ ،

ياجوجُ والماجوجُ في رعايةٍ كريمةٍ

بحِجْرِ (دوللي) (٢)الأُمّ والأمانْ .

وفي الوَسَطْ يُعربدُ الصاروخُ والحُسامْ ،

وإذْ عَبَسْ . . . في عُمقها قابيلْ ،

وَقَدْ مشى كَجَبَلٍ ثقيلْ ،

يُمزّقُ العروقْ ، ويقطعُ النَفَسْ .

---

(١) آصف — أرضُبا — خُشتبا — خان :لعلّها من أسماء الجان، أو هكذا أردتُ .

(٢) دوللي: النعجة دولي التي خُلقت من انشطار الخلايا بعد زرعها في معمل الجنين — أمريكا .

جُمجمةٌ كأنَّها غَوايةٌ ، خليفةٌ ، وَخَلْقٌ . .

" وإذْ قالَ ربُّكَ للملائكة إنّي جاعلٌ

في الأرضِ خليفةً ، قالوا: أتجعلُ فيها

مَنْ يُفسدُ فيها ويسفكُ الدماءَ "

جُمجمةٌ قد ضمَّها رداءْ ،

فإنْ سَلَخْتَهُ ، رفعْتَهُ ، طوْيتَهُ ،

عرَّيتَها ، نَبشْتَ جَذْرَها العُواءْ ،

هُناكَ ، يا هناكْ ،

يَموتُ ميّتونَ من جديدْ ،

وَتُسلَقُ (الكُرَهْ) (٣)بالقمعِ والحديدْ .

جُمجمةٌ وَوَردةٌ وَقُبَّرَهْ ،

وكأسُ خَمْرٍ وَفتاةْ ،

وشاعرٌ يُراودُ الحُروفْ ،

وَيخلقُ الجمالَ والخيالْ ،

وَيبتني (أعرافَهُ) (٤)الجميلْ ،

---

(٣) الكُره: الكرةُ الأرضيّة .

(٤) أعرافه، الأعراف: السور ما بين الجنة والنار ...

وَسادراً ، وسادراً يكونْ ،
لابُدَّ منْ صَحوته ، لابُدَّ من رَصَدْ ،
سَيصعَدُ الأعرافَ عالياً
وَمُشرِفاً على الجحيمْ ،
وحينَ من عليائه يُحدّقُ البَصَرْ ،
يُشاهدُ الأَبدْ . . " جُمجمةٌ
تَكلَّستْ من النُباحْ ، تَقطَّعَتْ
من العُواءْ ، من فَرْطِ ما تمزَّقَتْ
بضربةِ السيّاطْ " .
وَبعدَها بزمنٍ . . تَحوَّلَتْ ،
تَحوَّلَتْ في غيْهبِ الجحيمْ ،
لوردة وخابيهْ ، من خمرةِ الكرومْ ،
وَفتنة صَبيّةٍ في غيّها تحومْ ،
و . . . وشاعرٌ مُعبَّأُ الفؤادْ ،
تَسوَّرَ الأعرافَ ، داخلاً إلى المَدى
في عَسْجَدِ الأصيلْ . . .

ظُهورْ

سَأَكْتبُ عنْ ذاكَ الظهورِ ، وأكتبُ

تاسوعَهُ القُدُسيَّ ، عَمّا تكوَّنَ

في قاعه ، وعنْ مَحرقَهْ .

أراها تُراقصُ نيرانَها ، وَتُغنّي

مَواويلَ غُربتها وتقولُ :

الخلاصُ ، وهذا القِصاصُ ، وَبِركةُ

دَمٍ أوْ رَصاصُ ،-دَمْعٍ

فَلا إثْمَ إلاّ أنا في لهيبي أرُجُّ

حناياهُ ، لاورقةً ذابِلهْ ،

وَلا سَيْفَ إلاّ أُرقّقُ شَفرتَهُ

رحيماً ،...كيْ يكونَ

وَلا رُمْحَ إلاّ أُثقّفُ مُرَّانَهُ ، . . .

وَحِرابٌ تُسافرُ في ملكوتِ الضَّحيَّهْ .

سأَكْتبُ هذي الوصيَّهْ .

لقدْ كانَ طفلاً يُشاكِسُ فوقَ الرصيفِ

رفاقاً ، وَيمضي بهِمْ صَوْبَ غاياته ،
وأنَّ الذكَاءَ الْتعفَّنَ مِنْ كثرةِ العُهْرِ ،
كانَ رِداءً لما سوفَ يأتي . .
مَضى يعزفُ النايَ طاعناً في أغاني
الحصاد ، يقولُ : البلادُ ، العبادْ .
وأسفارُهُ كلُّها سَجْدَةٌ وصلاةٌ ،
عباراتُهُ زنبقيَّهْ .
تَراهُ ،على شَفَتَيْهِ يُقوّسُ ضحكتَهُ خاتلاً
وَحكيماً لأسرارِه ، مُحْكماً حَبلَهُ ،
وَشِباكاً يَصيدُ بها ما يَرى نفعَهُ ،
وما سوفَ يَصبو .
ويغدو لكانونَ مَوْئلاً وَمَلاذاً ،
يقومُ حزيرانُ، كُلُّ حُزيرانَ في
خدمة النبعة القُدسيَّهْ .
يُصفّي خصوماً تَراؤوا لهُ في الكوابيسِ ،
أوْ أنَّهم حَاوَروهُ قليلاً ،

لخدمته ما يقولُ المُحاورُ والمرزبانُ ،

وحاملُ عُكّازِهِ ، معطفِ المُلْكِ، والقُبَّعهْ .

...إمَّعَهْ ؟

إنّما لنْ يُعيدَ كلا

ماً ولنْ يَسمعَهْ .

وأكتبُ في آخرِ الصفحةِ المُطفأَهَ :

كلاماً عن السّحرِ والعَولماتِ ،

وأشيائه القْاسَها في زمانِ الطفولةِ ،

ثُمَّ انتهى يَلبَسُ المجْدَ ،

يَنتعلُ الغيْمَ خُفّاً ، ويمشي على

مُلتَقى الشرايينِ في أرضه الراجفَهْ .

صاعداً، صاعداً ، كلَّ سَبْعٍ ،

بلادٌ تُقدّسُ تاسوعَها، واكتمالَ

المداراتِ، فيما يقولُ الرُواةُ

عن المرأة التاسعَهْ ،

فأُمٌّ ، وأُخْتٌ ، وزوجةُ طُهرٍ ،

وكلٌّ وبَعْضٌ، وما سوفَ

يأتي منَ الفاجعَهْ .

وأكُتبُ في آخرِ السَّطْرِ منها :

سلاماً على بَلَدٍ قامَ فيها خطيباً ،

وأرضٍ غَشاها كما يَفعلُ العَنكبوتُ ،

وشَعْبٍ (خَصاهُ) إلى آخرِ البطْنِ ،

ثُمَّ استقرَّ كَخُنثى ، يُلقِّحُها فَخذُها ،

الأيمنُ الزمهريرُ ،

ويشربُ أسآرها فخذُها الأيسرُ النارُ ،

يَزرعُ حَمْلاً ، سيأتي (جميلاً)

ويأتي رجيماً ،

...ويأتي كَما شاءهُ خُلَّبيّا

الابنُ المُدلَّل

إنَّهُ شَابٌ ذكيٌّ ونَشيطْ ،

ما اسْطَاعَ امتلاكَ - وَحَقِّ اللهِ -قَدْ

الثانويَّةْ ، خَمْسَ مرّات فَقَطْ .

رُغْمَ أنَّ الوالدَ السيّدَ لَمْ يَبْخَلْ

على أُستاذِهِ يوماً بمالٍ ،

أوْ شِراءِ الأسئلةْ ،

واقتناءِ السيفِ في أيدي العَسَسْ .

قالَ يوماً للغلامْ :

يا بُنَيْ ، إنَّني صاحبُ هذا الأُفْقِ ،

أدْحوهُ وأبنيهِ يَسارْ ،

مَرَّةً أُخرى يَمينْ ، وإذا شِئْتُ وَسَطْ ،

يا غُلامْ ، فَتَعلَّمْ من أبيكْ ، وَتَقَدَّمْ ،

مَجْدُكَ الجاهزُ ما بيْنَ يَدَيْكْ . . .

إنَّهُ شابٌ مُجيبٌ وَقنوعْ ،

دَخَلَ المَجْدَ كَمَنْ يَدخلُ (لِلمرحاضْ) ،

يرتاحُ كثيراً ، عُصبةُ التشطيفِ في
الباب ، رجالُ المكنَسَهْ ،
حاملُ المنديلِ ، و (السشوارِ) ،
أيضاً جاهزونْ .
فَلَهُمْ فَخْرٌ وفضْلٌ ورِيادهْ ،
كُلُّهمْ بينَ يديْهْ .
وَسعى هذا الغلامْ ،
مَرَّةً يَبني ببيروتَ فنادقْ ،
مرَّةً يوصلُ ماءَ النيلِ للصحراءْ ،
مَرَّةً يحفرُ نَهْراً كإلهٍ ، ثُمَّ يروي
عَطشَ البحرِ إلى الماء الفُراتْ ،
يَبتني سَدّاً ، ضياعاً ، ومعاملْ
في دمشقْ .
إنَّهُ الغَيريُّ في سيرته ، يسكنُهُ
الخيْرُ ، كإيوانٍ لكسرى لا يغيبْ .
بَعْدَ يومينِ وشهريْنِ وعاميْنِ فقطْ ،

كانَ هذا الشابُ قد داخَ على البحرِ ،

ابتَنى في كُلِّ أوربا بنوكْ ،

وَتعدَّى خيْرُهُ البحرَ المحيطْ ،

فَبنى في قلْبِ أمريكا بيوتاً للصلاةْ ،

ثُمَّ بعد الفَرْضِ والنفْلِ تَقدَّمْ ،

خاشعاً يَخفقُ في نَعليْه قَلْبُ ،

صَوْبَ بيت أبيض يَحبو ، ويجبو :

أنتمُ الدَّهرُ ، وأنتمْ كُلُّ ما فيه ،

بُناةٌ ، وَعتاريسٌ ، وَصَحْبُ ،

كيفما شئْتمْ فَكلّي لكمُ روحٌ وقلْبُ . .

عَميدُ الشُعراءْ

قالَ لهُ سيّدُهُ يوماً :

لأنتَ الشّعْرُ والشاعرُ (والتَّفجيرُ) في

الحَرْف ، الذي جاؤوا بِهِ واستحدثوهْ ،

أنتَ بوَّابةُ هذا المجدِ ، والعكّازُ

والبوقُ الذي يَرفعني حتّى النجومْ ،

فاجعلَنْ أُفقي حَروناً ،

واجعلَنْ بأسي حديداً ،

واكتُبَنْ ملحمةً تَبقى ، يَراني البَشَرُ

الآتونَ ، أنّي الكوكبُ الدُريُّ والكونيُّ

والمخفيُّ في السرِّ الدفينْ .

وأجابَ الشاعرُ المرفوعُ من سيّدهِ

والمُجتبي :

أنتَ ، يا أنتَ . . كأنَّ القَبْلَ ما كانَ ،

ولا بَعْدَ يَجيءْ ،

لَسْتَ كوكبْ . . لا . . ولا أنتَ شموسْ ،

كلُّها آياتكَ الصُغرى ، ولا شيءَ سواكْ ،

يا ملاكْ . .

أنتَ مَنْ يَفتحُ هذي الأرضَ في الطولِ

كَخَطِّ الاستواءْ ،

ثُمَّ يَبني في خطوطِ العَرْضِ منها

كُلَّ آيات الفداءْ ،

أنتَ يا مولايَ مِثْلُ المُطْلَقِ ، المُطلقِ ،

هلْ أُعليكَ أَكْثَرْ ؟ ؟ .

ضحكَ السيّدُ ، قالوا من قديمْ :

" أعذبُ الشّعرِ نشيداً أَكذبُهْ "

ثُمَّ قالْ :

لا عليكْ ، فَاستلمْ ما أنتَ أَهْلُ ،

كُلَّ حالات البلادْ ،

كُلَّ وَحْيٍ في القصيدْ ،

وَرئيسَ الفكْرِ والتفكيرِ كُنْ ،

أَيُّها المسكونُ بي يا شاعريْ . .

وَتمرقُ السنونَ ، تَمرقُ السنونْ ،

ويذهبُ العميدُ في غيابةِ الظلامْ ،

وَشعْرُهُ الخَرِقْ ،

وَيذهبُ الدُرِّيُّ في الغَرَقْ ،

وَ تَمَّحي الأَطنانُ مِنْ وَرَقْ . . .

نفاق

قالَ : هذا شاعرٌ أكبّرُ ، قد جاءَ

منَ المأساةِ والحربِ ، ومن أنحاءِ

بيت لا يلينْ .

إنّهُ المسكونُ بالحرْفِ وبالشّعْرِ ،

وبالعلمِ العَروضيِّ المَكينْ .

ثُمَّ ، يا ثُمَّ . . التي تَلوي شِفاه

النخلِ قالْ :

يا حضورَ الخيرِ ، هذا مَعْلَمُ الشرْق ،

و بَابٌ و خزينهْ ،

كلُّها ملآى دنانيرَ وحلوى .

و تقدَّمْ . .

وانحنى كالبهلوانْ ،

جَبْهَةٌ يأكلُها الزَّيفُ، تَكادْ

تصلُ الأرضَ بأقصى ما يكونُ الانحناء .

وَقفَ الجالسُ والشاعرُ والآتي

من الحربِ الكبيرْ :

أنتَ أَهْلٌ لمرورْ ، خُذْ بطاقهْ ،

إنَّها دعوى اشتراكٍ لكَ ،

(في منزلنا القائمِ في عاصمةِ الكِبْرِ)

فأنتُمْ . . من ضيوفِ المهرجانْ ،

مَنْ سَيبنونَ الروايَهْ ،

ويُغنُّونَ القصيدْ ،

فَهُمُ أصلُ الأدَبْ ،

وحوارُ النقدِ في كلِّ مَجالْ .

- مَنْ قَدَّمَهُ -وترامى ذلك الشاعرُ

بيْنَ يَدَيْهْ ،

أخذَ الأوراقَ منهُ والبطاقه ،

وانحنى، واظَّاهَرَ في تَقبيلها

وهو يقولْ : أنتَ شمسٌ وحقولْ .

مُعَلِّق

قالَ والقولُ مُعادٌ ومُكَرَّرْ :

إنَّ في الشَّرْقِ يَباساً ،

ثُمَّ في الغربِ مَطَرْ ،

وهناكْ . . ، في مغاراتِ الجبَلْ ،

يَقبعُ الإرهابُ والقتْلُ ، عَفاريتُ

الظلامْ ،

سوفَ يأتي سيّدُ الأرض ،

وتمشي فوقَ ماء (المُتوسِّطْ)

تانكَ الأُنثى ، التي تَملؤنا

حُبّاً و عشقاً و ضِرامْ ،

ثُمَّ تُعطينا الجَسَدْ ، يا سَلامْ . .

فادخلوا ساحةَ تَصويتٍ :

لتحطيمِ المَغارهْ ،

وادخلوا سَاحةَ تصويتٍ :

لِشَلعِ الأُخطبوطْ ،

وادخلوا ساحةَ تصويتٍ :

لمَسْحِ الظالمينْ . .

لَمْ نَقُلْ شيئاً سوى: يا سيّدي

ليسَ في ساحتنا غيرُ الغُبارْ ،

فَاجلبِ الجنَّ وذاكَ الأُخطبوطْ ،

نحنُ لا نعرفُ من أينَ نَموتْ ؟ . .

بُوقْ

كانَ كلَّما أسندَ الظهرَ ،

خلفَ طاولةِ الأبنوسِ ،

و عدَّدَ أقلامَهُ الذهبيَّهْ ،

و حَدَّقَ ، حدَّقَ في خَواتِمه ،

والفصوصِ منَ الماسِ ،

أثْمانُها فوقَ طاقةِ أمّه ، عَمّه ،

خاله ،عائلةٌ منْ لصوصْ .

كانَ يُدركُ ، يُدركُ في هذه اللحظة الخارقَهْ ،

فوائدَ شدْقٍ تَحلَّبَ بالمكْرِ

واللغة المارقَه ويُدركُ أنَّهُ البوقُ ،

يُنفَخُ فيه شَمالاً ، جَنوبْ .

فَسُبحانَ مَنْ صَغَّرَ الطاولَهْ ،

وسطَّحَ بِلْلَورَها و مرآتها ،

كيْ يُرى ذلكَ البوقُ في

الجُبَّةِ الفُستقيَّهْ .

المُختارُ وزوجُهْ

إنها امرأةٌ وادعَهْ ،

هكذا صَوَّرَتْها الصُّحُفْ ،

وتُمْسكُ سُبَّحةً من خزَفْ ،

وربَّما تُصلّي ، كُلَّ يومَيْنِ مرَّةً ،

وربّما تصومْ .

لكنها إذا استشاطَتْ ، جمعَتْ

من صدرها السُّمومْ ،

ثُمَّ أرغَتْ وزمجَرَتْ ،

وصوَّبتْ مخرزَها الرحيمْ ،

لصبيةٍ وعَانسٍ وأَيِّمٍ غريقْ ،

و بَسملَتْ، و حوْقلَتْ ،

وأشعلَتْ في جلدها الحريقْ . . .

وزوجُها الجميلُ، ذو العَباءة القَصَبْ ،

بشاربَيْنِ التَصَقا على شفَهْ ،

وامتلآ بالمسكِ والعبيرْ ،

يقولُ في صباحِه : يا ربَّنا المَسيرْ .

وفي ابتداءِ شُغلِه :

فَلْتَملؤوا مخازنَ الأميرْ .

وفي نهايةِ العَمَلْ ، يُوزِّعُ الحِصَصْ ،

على الخفيرِ والعَسَسْ ،

وضاحكاً من فَرْطِ ما كَدَسْ .

وحينَ يبدأُ الغُروبْ ،

يسيرُ مخفوراً إلى حَمَّامِه ،

لينتشي، ويغسلَ الذنوبْ .

وبعدَها ، يدقُّ طبلَهُ

لسهرةٍ ماجنةٍ لَعوبْ .

و بعدَها ، وبعدَها ،

لا بُدَّ مِنْ سَجَّادةٍ

لِيختِمَ المسيرْ . . .

مَصير كَلْب

كانَ كلْبٌ حارِساً في باب كَهْفٍ

ويُصيخْ ،

يَسمعُ الأصواتَ في داخله، مثْلَ

فَحيحٍ قادمٍ منْ شقّ أرْضْ .

قالَ صوتٌ: أيها الأخوةُ، أصحابُ

الرّئاسات ، وآباءُ البلادْ ،

لمزيدِ السَّطْوِ والسَطوةِ لا بُدَّ من

القبضةِ أنْ تبقى حديدْ ،

ليسَ في الصفّ جَبانٌ أوْ رَحيمٌ

مارقٌ ، يَسَخَرُ منهُ الخَصْمُ ،

يَطويه بِساطْ ،

نحنُ مَنْ يطويه ، يَطوي بَلَدَ الخيرات .

أَسْمَوْنا الصعاليكُ : طُغاةْ .

يا أبانا في السماوات العليّات

استمعْ ، واصْغِ لما سوفَ نَقولْ :

نحنُ مَنْ يفرمُ هذا الشرقَ بالسكّينِ ،
يَدحوهُ ، ويبني فوقَهُ آمالهِ القُصوى ،
وقَصْراً لا يزولْ . .
قالَ آخَرْ : إنّما يا صاحبي ، الأعمالُ
بالمَسْلك والقولِ الجميلْ ،
أوّلُ الخُطوة أنْ تصنعَ دستوراً ،
وتَبني فَرَماناً للقتيلْ ،
وعَلَيْه أنْ يرى في موتهِ نَفْعَ
البلادْ ،
ويرى في سادة الوقْتِ ،
وَهُمْ : نحنُ ، العمادْ ،
ويرى في كُلِّ مَنْ سارَ على رجليْنِ ،
من آبائه ، أبنائه ، نعمتَنا
الكُبرى تَسيرْ ،
نحنُ سورٌ ومصيرْ .
قالَ صوتٌ ثالثٌ : هذا كلامُ

العُقلاءْ ،

وعلى الدستورِ أنْ يبقى لصيقاً

بالسماءْ ،

وعلى السَّيْفِ لكي يَبطشَ

أنْ يبقى بعيداً في الخفاءْ ،

مُدْعَماً بالمُخبرينْ ، ورجال طَيّبينْ .

آخِرُ الأصواتِ قالْ : كُلُّ شَيْءٍ

في السّرارْ ،

كُلُّ شَيْءٍ غامضٌ كالنارِ ،

لا يُعرَفُ من أينَ أتى ،

لا . . ولا المُخْبِرُ واللصُّ وقَطّاعُ

الرقابْ ،

فَهُمُ يا أُخوةَ الكارِ وسيلهْ ،

ليسَ غَيْرٌ ،

و هُمُ يا أُخوةَ القَتْلِ . . .

وجاءَ الصَّمْتُ ، والصمتُ المُريعْ ،

مثلَ خنجرْ ،

يَمتطي اللّيْلَ ويمضي .

كانَ كلْبٌ حارساً في

مَدخلِ الكهفِ و يضحَكْ ،

هامساً في نفسه :

أبناءُ كلْبٍ كُلُّهمْ ،

يا ااااااهْ ،

فجأةً . . ، كانَ نُباحُ الكلبِ في

آخرِ ما عاشَ ،

وفي مُنتَصفِ الرقبةِ سكّينٌ يَغوصْ .

مَسيرَةُ قاضٍ

بَعْدَ ستّينَ من التأسيسِ
في السّلك الرفيعْ ،
كانَ يَخطو باتّجاه المجْدِ ،
يَوْماً . . قاضياً ،
يوماً . . نقيباً لقضاة طَيّبينْ ،
كانَ يَسْكَرْ، ثُمَّ من سُكْرٍ لسُكْرِ
يُصدرُ الأمرَ الخطيرْ :
فَفُلانٌ . . يَستحقُّ الموتَ ، إذْ
أسَّسَ بيْتاً لعيالٍ حَولَهُ ،
مثْلِ فراخِ الطيْرِ، لا مأوى
ولا ثمَّ حَصيرْ ،
دونَ ترخيص من الدولة، أوْ
فَتوى من الآمرِ بالمعروف، أوْ
ذي سلطة تَقمعُ كالليْلِ ،
أميرٌ منْ أميرْ ،

إنّهُ هرطيقُ ، فَاقطَعْ

رأسَ هرطيق كَفورْ . .

وَفُلانٌ يَستحقُّ الفَتْحَ والرفْعَ

وَنَصْباً وهناءْ ،

فَلقدْ داسَ قوانينَ القضاء ،

رَفَعَ القصْرَ الخَوَرْنَقْ ،

وَ ابتنى بيْتَ بِغاءْ ،

أرسلَ الدولارَ ، مليوناً ومليوناً

إلى مركزه خَلْفَ البحارْ ،

حولَهُ الأصحابُ والخدّامُ والحرّاسُ . . ،

كلٌّ طَيّبونْ ،

فَهُمُ مَنْ دَفعوا السّكّيرَ للسكْرِ ،

وَهُمْ مَنْ أخذوا زوجَتَهُ حتّى يُفيقْ ،

فَيراها كالعقيقْ ،

ثُمَّ يمضي في طريقٍ أوْ مَضيقْ . .

ذلكَ القاضي الجميلُ بنُ الجميلِ

ابنِ الجميلْ ،

بَعْدَ أَنْ أصبحَ في الستّينَ ،

وَ السُّكَّرُ والضغطُ وأَمراضُ العظامْ ،

وَ خُثارُ المُخِّ جاءْ ،

وأرادْ ،

يَدخُلَ الأحزابَ تلكْ ،

كلُّ حزبٍ حولَهُ شِرْذِمَةٌ من

سَقَطِ المأساةِ ، عَشْرَهْ

لا تزيدْ ،

فَلَهُمْ في البرلمانْ ،

ولهمْ في كلِّ تشكيلِ الوزاراتِ

مكانْ ،

ولهمْ عَرْشٌ على الماءِ ،

وعرشٌ فوقَ سطحِ المهرجانْ ،

دخلَ المأفونُ حزْباً ،

كلُّهمُ ستٌّ وسَبْعْ ،

نَصَّبوهُ أوّلاً عُضواً ،

فَعُضواً أوّلاً ، ثُمَّ وزيرْ .

دخلَ البابَ إلى مكتبه المغصوص

بالأشلاء والأنواء والعُهْر المُباحْ ،

ثُمَّ صاحْ : فأنا آخرُ هذا المَدّ ،

والخاتَمُ ، شَمْسٌ للصباحْ ،

فَدعوني في صَبوحٍ وَغَبوقٍ دائمَيْنْ ،

ملأ الأقداحَ حتّى يَنتشي ،

حتى يَدوخْ ،

فَهوى كالثور فوقَ الطاولَهْ ،

أخذوهُ ، غَسلوهُ ، كفّنوهْ ،

ثُمَّ غَطَّوْهُ برمزٍ وعَلَمْ ،

وبميزانِ القُضاةْ ،

ثُمَّ قالوا: إنّهُ رمْزُ الحياةْ .

الوزير (كبيرْ)

كانَ في السيَّارةِ السوداءِ في مقعدِها
الخلفيّ ، يَستعرضُ هاتيكَ البلادْ ،
و يرى كُلَّ زُقاقٍ ،
كانَ يَسعى فيه طفلاً و يَسيرْ ،
ويرى اللحَّامَ والخبّازَ والقصَّار ،
والقرَّادَ في الساحةِ مبهوراً ومأخوذاً ،
ومَا في روحهِ الخُنثى من الآهاتِ
والْلَفِّ المُبرمَجْ، و تذكَّرْ :
مَرَّةً كانَ صَبيّاً ها هُنا في ساحةِ
البلْدة ، يُغوى بالدنانيرِ، وبالراحةِ
والفُستقِ، والثوبِ الجديدْ .
كانَ في كلِّ صباحٍ قادمٍ كالسيفِ ،
لا يعرفُ هل كان ابتداءً أمْ نهايَهْ ،
يَحملُ السلَّةَ والغربالَ منْ بيْتٍ لبيْتْ ،
قَدماهُ امَّحَتا من كثْرةِ التجوالِ

والركض إلى كسرة خُبزْ . . .

دخلَ (اللُّعبةَ) في وقت مُبكّرْ ،

وابتدا خُطوتَهُ الأولى هُتَافاً ،

و صُراخاً ، و نشيدْ :

للأرضِ فداءْ "- يا أيُّها الأخوةُ -" كلُّنا

رُبَّما كانَ ابتداءُ الصوتِ فيه صادقاً ،

أوْ رُبّما كان انعكاساً لبليّاتٍ

تُغطّي مُقلتيْهْ .

دخلَ (المسرحَ) ، أغوَتْهُ الكراسي

فَصَعَدْ . . . ،

مثلَ باذنجانةٍ تَسودُّ في النضجِ ،

وتغدو بعد حينٍ عَفِنَهْ ،

وتعلَّمْ ، كيفَ يمشي في صعودٍ

بينَ أكوامِ الصراعْ ،

فهوَ مَحسوبٌ على جَمعيَّةِ الإحسانِ

"إذْ كانَ فقيراً وأَجيرْ " ،

وهوَ محسوبٌ على قائمة الثوّار

"إذْ أصبحَ صَوْتاً صارخاً ، بوقاً خطيرْ "

و لِمَنْ يَبحثُ عنْ شَكْلٍ جديدٍ

لِيَسارْ ،

كانَ شكْلاً لا يُقاوَمْ ،

للوطنْ . . ، كانَ مأوى وشموخْ ،

كانَ شمعَهْ ، كانَ دمعَهْ ، يا اااا ه ،

و (كبيرْ) ،

أصبحَ الآن وَزيرْ .

فاشترى من رأس مالهْ : ضَيْعتَيْنْ ،

وابتنى في كُلِّ ضيعَهْ

مَعملَيْنْ ،

ورأى فيما يَرى النائمُ رؤيا :

" رُبَّما كبيرُ أنْ تكبُرَ أكثَرْ "

فَرمى بعْضَ نقودٍ لليتامى ،

ورَمى بعضَ ثيابٍ للأيامى ،

وبَنى في الوقت ذاتهْ :

" مَجْمعَاً للرقصِ والتحشيشِ والكَيْفِ

المُباحْ "

ثُمَّ في الساحة يومَ العيد قالْ :

أيُّها الأخوةُ في كُلّ مكانٍ أوْ زمانْ ،

أيُّها الأخوةُ من كلِّ اتّجاهٍ أوْ أُفُقْ ،

إنَّها بَلدَتُنا الملأى بأفكارِ الحياةْ ،

كُلَّ يومٍ ،

كَوكَبٌ يأتي جديداً ،

نَيْزَكٌ يَهوي إلى قاعِ المَماتْ . .

الليلة الأخيرة

شُقَّت الأَرضُ ،

ثُقِّبَتْ ،

غِربالَ بيْدَرٍ قَديمْ ،

وَسُلِّخَ الأَديمْ، بِخنجرِ الجحيمْ ،

وَابتنى الزنادقهْ

بيوتَهُمْ

مِنْ جُثَث وَمعْوَلٍ وصبيْةٍ وامرأَةٍ عَقيمْ .

وقامَ أَوَّلُ الطُغاة هاتفا :

ذَبحتُهُ ، سَلخْتُهُ ، سلَقْتُهُ ،

أَكلْتُ صدرَهُ وقلبَهُ ،

خذوا البقايا ، و اطعموا جيادَكُمْ ،

وَاشبعوا البطونْ ،

لعلَّ يأتي الجدْبُ والخَواءْ ، . .

يكونُ عزمُنا مَتينْ ،

وقلبُنا مَضاءْ .

وقامَ آخرُ الطُغاة صارخاً :

أَرمَلَةٌ ، يتيمةٌ ، وطفلةٌ غريقْ

لا تطفىءُ الحريقْ ، وتُشبعُ العُواءْ ،

سَنأكلُ الرَّمادَ سيّدي غداً ،

ونشربُ الصديدْ ،

لابُدَّ من مزيدْ ، لابد من مزيدْ . .

تَجمَّعوا ، وقرَّروا في آخرِ اجتماعْ :

سَنفرمُ البيوتَ والضياعْ ،

وَنَبتني القلاعْ ،

ونهرسُ المدُنْ ،

فكُلُّهم عَبيدْ ، قَدْ خُلقوا وكَبروا

لبأْسنا ، ونَابِنا الحديدْ . . .

وَوزَّعوا البلادَ بينَهم حِصَصْ ،

وَوزَّعوا البَشَرْ ،

وأدخلوا القُرونَ في جَبْبته الأميرْ ،

وأعلنوا :

أخطرُهُمْ آخرُهُمْ ، فَتوَّجوهُ مَلكاً ،

وأعلنوا الخضوعْ . .

وَتمرقُ السنونْ ،

يكدسونَ ، يأكلونَ هاتِه العظامْ ،

ويابسَ الحَشيشْ ،

وحينَ جاءَ الجدْبُ والغَرَقْ ،

وَانْتَخَلَتْ بلادهُمْ منَ العبيدْ ،

وسافرَتْ طيورُها مع الأُفُقْ ،

نساؤها ، غلمانُها ، حمارُها ووَحشُها ،

وبقيَ الطُغاةُ ،

سَبْعَةٌ وسبعةُ القصورْ ،

أوسطُهم سيّدهُم ، الفارسُ الجسورْ ،

وحينَ مَدَّت السنونْ ،

تناولَ العجوزَ منهمُ كَلُقمةٍ

لشدقه الحنونْ ،

يَسدُّ فيه رَمَقاً ، وَجوعَهُ الدفينْ ،

وبعدَ يومٍ واحدٍ ،
تناولَ الأميرَ صاحبَ الخزانهْ ،
كَوجبةٍ يخزنُها في الصُلْبِ والعظامْ ،
وحينَ مرَّ سادسُ الأيام ،
كانَ سيّدُ القصورْ ،
قدْ أكلَ الجميعْ ،
فدارَ في المكانْ ، كيْ يُخرِسَ السَّغَبْ ،
وصاحَ وانقلَبْ :
يا أيُّها العبيدْ ، حُثالةُ الزمانْ ،
سيّدكُم ، ملككُمْ ، وتاجُكمْ يَخورْ ،
فأسرِعوا ، وانقذوا عمودَ بيتكم
من جوعِه المريرْ .
ودارَ في القصورْ
دورتيْنِ ، خمسةً ، وسبعةً ولمْ يصلْ ،
ولمْ يجدْ حُطامْ ،
وخارَ جوعاً ذلكَ الطَغامْ ،

وَاصطدمَتْ خُطاهُ ، بعضُها بِبعضها ،
وَاقتعدَ التُرابْ ،
يَعَضُّ ساعدَيْهِ ، بطَنَهُ ، وفخذَهُ ،
وما هُناكْ . . .
لعلَّهُ ، لعلَّهُ يُبعدُها غريزَةَ الطعامْ ،
وجاءَت الذبابْ ، عقاربُ الجهاتْ ،
وكلُّ أفعى مارقَهْ ،
سيْلٌ من البعوضِ والهَوامْ ،
وحَدَّقوا بهِ واقتربوا كالموتِ في الوتينْ .
وصاحَ : يا أمانْ ،
وصاحَ : يا زمانَ ، يا ملوكَ ، يا ديوكَ ،
يا بلادْ ،وانقلبَ الصَدى صَديدْ ،
تَقدَّمَتْ قبائلُ الأفاعي ،
قبائلُ الهَوامْ ، وَحَوَّمَتْ ،
وكدَّسَتْ لُعابُها ، وأقبلَ الظلامْ . . . .

الصُحُف

كانَ في الأولى خطوطٌ زُرْقُ ،

مَلآى بإثاراتِ السؤالْ .

إنّها تروي عذاباتِ " جنينْ " ،

ومآسي " بيت لحمْ " .

ثُمَّ تحكي عن " سدودٍ " ثُقبَتْ بالفأْر

أو بالماءِ ، أوْ بِالصانعينْ ؟؟ .

ثَمَّ بعضُ الشّعْرِ في زاويةٍ مُهملَة

في آخر الصفحةِ ، يَحكي عن فتوحاتٍ

وعنْ مجْدٍ مَكينْ .

و هناكَ الحظُّ فيها ، بيْنَ برجِ الحوتِ

والعذراءِ والعقربِ والدلْوِ المليءْ :

بِنفاياتٍ وصحراءَ على هيئةِ دلْوٍ ،

ليسَ ماءْ .

إنّهُ شكْلٌ فقطْ .

كانَ في الثانية (الحمراء) منْ عزٍّ ،

ومنْ ثورة قَوْلٍ، من كلامٍ كالرصاصْ ،

إنّها تَروي احتمالاتِ حروبٍ في الخليجْ ،

واحتمالات يَباسٍ للنخيل ،

واحتمالات تَشرُّدْ ، واحتمالاتِ ضياعْ ،

ثُمَّ إنَّ الخصْمَ مُنهارٌ ،

ففي حزبيْنِ منهُ يَتصارعْ ،

دولةٌ كُبرى هناكْ ، وانتخاباتُ شيوخْ .

لا تخافوا . .

ثَمَّ شيءٌ صاعدٌ من خيمة الصحراء

والسَّيْفِ ، ومنْ أصواتِ كُلِّ المؤمنينْ ،

يُعلنُ اليومَ الحقيقةْ :

نحنُ مَنْ يَستخلفُ الأرض، ويبني

فوقها أعلامَهُ الرثّةَ ،

نحنُ الفاتحينْ .

نحنُ مَنْ يدخلُ في قَرْنٍ ،

تَقوَّسَ مثلَ قرْنِ الثوْرِ ،

يَصلُحُ للنطاحْ ،

نحنُ نبني عولماتِ الوقتِ والصاروخَ ،

نبني الحِرْزَ للدولة، فالغيمُ جَناحْ .

إنّها مسألةٌ كُبرى، ولكنّا فُحولْ . .

ثُمَّ يأتي ذلك المَسلولُ في زاويةِ

المرأةِ مَصدوراً يقولْ :

إنها مسألةٌ ترفعُنا حتّى النجومْ ،

حَرّروا المرأةَ، اخواني ،

ارفعوها ، وارفعوها ، وارفعوا . . .

ماساً ، وعاجاً ، ورُخامْ .

يا سلامَ الوقت ،

باريسُ وموسكو ، ثُمَّ برلينُ وبكّينُ ،

وأصواتٌ من الشرْقِ ، ومن غرْبٍ مُدانْ .

ترفعُ الحقَّ كتاباً ، ربَّما كان كتاباً ،

ترفعُ الصوتَ الجهيرْ ،

لا . . لحربٍ ، لا . . لقتلٍ ، لا . . لذاكَ

المجلسِ المبتورِ ،

فالكاهنُ ، والحارسُ ، والجنديُّ ،

والصاروخُ صوتٌ واحدٌ ، يأتي

ويُملي ما يُريدْ .

يا سلامَ الوقت ،

نحنُ (الجهةُ اليُمنى)تُعدُّ الخطَّةَ

السوداءَ للغزو ،

ونحنُ (الجهةُ اليُسرى) غبارْ ،

إنّما في الصدْرِ منّا شريانٌ شاخَ ،

والقلبُ حصارْ .

جمعَ التدليسَ والخوفَ وتأْيدَ زَعاماتٍ

تُغنّي في الصقيعْ ،

وتغنّي في الربيعْ ،

تَلدُ الأرضُ إذا ما مسَّها نَجْدٌ عتيدْ :

أُفعواناً، وذُباباً ، وشريدْ .

كُومةٌ من صدأ الوقت، هنودٌ وقطيعْ ،

يا سلامَ الوقت ،

هذي الأَمَّةُ الخرساءُ والصمّاءُ والحُبلى

بكابوسٍ مُخيفْ . .

فادْخلي يا صُحُفَ اليومِ إلى

حانوت (قَصَّارٍ) ، وكوني أَغلفهْ ،

لسراويلَ ، وقمصانٍ ، وما تلبَسُهُ

الأنثى على فخذْينِ من نارٍ وماءْ

إنّما ، لا . . لنْ تكوني مرّةً واحدةً

يملؤكِ الحقُّ ،

وصِدقُ الأنبياءْ . . .

المَقْبَرهْ

ذهبْتُ مرّةً

أستنطقُ المقبرةَ الصَموتْ ،

ضحْوةَ النهارْ ،

هُناكَ شاهدٌ مُخلَّعٌ ،

هُناكَ شاهدٌ جديدْ .

ما بيْنَ شاهدَيْنِ قطَّةٌ تَموءْ ،

ثَمَّ كَلْبٌ واقفٌ يَبولْ ،

وحولَهُ وخلفهُ جَماعةُ الجداءْ ،

يَنعمونَ بالحشيش ، ينعمونَ بالْلَعبْ ،

و مُهرَةٌ مُحْدقَةٌ في أُفْقها الجميلْ ،

تُراقبُ الشُعاعْ ،

وَيشمَخِرُّ جيدُها ، فَيَسكَرُ الجَدَثْ . . .

وجئْتُها في ليلةٍ شديدةِ الظلامْ ،

لعلَّ في سكونه ، ظلامه إغراءْ ،

يقومُ ميّتٌ ويفتحُ التُرابْ ،

يُشير لي بإصبعٍ ثابتةٍ ، وفَمْ . .

تَعالَ يا صديقْ ،

سنفتحُ السّرارْ ، فَتعرفَ الغيوبْ :

" هُناكَ ، يا هُناكْ

عظامُنا ، عُيونُنا ، شَواةُ رأْسنا

و شَعْرُها الجميلْ ،دماغُنا الذي به تابَعَنا المسيرْ ،

وأرجُلٌ ، سواعدٌ ، و مفصلٌ و كُلْيَةٌ وحالبٌ ،

وكُلَّ ما تَرى يا سيّدي ، استَحالْ :

دودةً ، فتُربةً ، خيالْ،

فَزهرةً ، فَعاصفاً ، سُؤالْ ،

فَحالكاً ، فدامساً ، فَغَيْبْ ،

ويكْبُرُ السؤالُ ، يَكبرُ السؤالْ ،

في رَقبة السّنينْ .

فَبَعضُهم جَسَدْ ، وبعضُهمْ دُخانْ ،

أرواحُنا تَطيرْ ، وأنتُمُ الجَناحُ

والهوى الضَريرْ . " . . .

وجئتُها في لحظة صَفاءْ ،

في لَيلةٍ يُقالُ : إنَّها ضَياءْ ،

يا حبَّذا القبورْ ، هنا الخلودُ والطموحْ ،

وَمَوْئلُ الرُؤى ، وغايَةٌ مُشرَّعَهْ

على اليقينْ ،

كأنَّها ، كأنَّني أمامَ فتنةٍ وجنَّةٍ

وكَوْثَرٍ .

وصحبةٌ يدورُ بيننا الرحيقْ ،

وكُلُّهم . . تَمدَّدَتْ أعضاؤُهُ على سريرْ ،

في رحلةِ الأمانِ والمَصيرْ ،

لا خوفَ ، لا ظلامَ ، لا كَبَدْ ،

في كرِّها الفصولْ ، ودَوْرةِ السنينْ ،

بلا رجاءٍ أوْ طُموحْ ،

فَكلُّ شيءٍ خالدٌ في شكله الجميلْ ،

وكلُّ شيءٍ أَبَدٌ مُؤَبَّدٌ ، سُكُونْ ،

تَكونْ - مِنْ نَظرةٍ -وكلُّ فتنةٍ

أمامَهُ وخلفَهُ ، سريرَهُ الحَنونْ ،

فيشرَبُ العَسَلْ ، ويطلبُ المزيدْ . . .

وجئْتُها مُعربِداً وضائقاً من ظُلمة

الحياةْ ،فَلَمْ أَجدْ في كلّها سوى المَنونْ ،

سوى ضريحٍ ضامرٍ كَحبلة الغَريقْ ،

ولْم أجدْ في عُشبِها وخيلها ،

ظلامِها ، ضيائِها ، وضحوة النهارْ ،

سِوى الضَّنى ، وفأرَةٌ هُناكَ

تثقبُ الجدارْ ،. . و جيفَةٌ مُمدَّدَهْ ،

وكلُّ ضارٍ حَوْلَها عُواءْ ،

فغامَت الرُؤى ، وضاقَت الطُرُقْ ،

نظَرْتُ إذ نظَرْتُ للأُفُقْ ،

رأيتُهم كالنارِ قادمينْ ،

في كُلِّ خطوة ضَريحْ ،

و كُلِّ شهقةٍ غُبارْ . . .

رَجُلانْ

مُقْبلاً كالزَوبعهْ ،

يقلعُ الأشجارَ ، يَمضي في جنونْ ،

وَهْوَ في الغرْب ظلامٌ ،

ثُمَّ في الشرق غرَقْ .

مُقبلاً مثْلما يَشتهي ، ويشتهي كَثيرْ .

شدْقهُ مَغارَةُ الضّباعْ ، يدُهُ مخْلَبٌ حَديدْ ،

بَطْنُهُ كنزُهُ الثمينْ ،

لاحمٌ ذلكَ الشَّبَحْ،

مُقبلاً كالقضاءْ ، صوتُهُ منْ رعودْ ،

خَطوُهُ سَهْمُ قَوْسٍ يَرِنّْ ،

ضاقَت البلادْ .

فَغدا فوقَها قَدَرْ ، يفلقُ السَّحَرْ ،

والصبايا النهودْ ، مُضغَةٌ منْ مَدَرْ .

وانثنى فاتكاً ، ذئبُهُ يَمشي بأنحائه ،

يأكلُ الأرضَ ، يشربُ تلكَ الدماءْ ،

مِنْ دُمىً تحتَهُ ، تحتَ نعليْه تراهْ :

قَدَرَ الوقت ، وبئراً لعفاريتَ ،

وما ليس يكونْ . .

وهناكْ . . .

رَجُلٌ آخَرُ يمشي ، خُطوةٌ تغدو فَراشَهْ ،

خُطوةٌ فوقَ لحاف الأرض صَحْوٌ ومَطَرْ ،

ضلعُهُ ملآنُ بالسُّكَّرِ للأطفالِ ،

والكفُّ ثَراءْ ،

لَحمُهُ وزَّعَهُ في سيرِه للفقراءْ ،

وَهْوَ والمزمارُ والعصفورُ والخبزُ

وزَهْرُ الأرضِ أصحابُ طَرِيقَهْ .

ملأَ المعطفَ خُبزاً ،

ملأَ القُبَّعَةَ الغرقى رحيقْ ،

وَمضى يَعزفُ سكرانَ من الوجْد ،

وَمنْ حُبٍّ ، ومنْ صَحْبِ الطريقْ .

وَتجمَّعْ . . .

فِي الميادينِ ، وفِي الساحاتِ ،
فِي كلِّ زُقاقْ :
كلُّ زَوجيْنِ ، وجنسيْنِ ، وطفليْنِ ، وشيْخيْنِ ،
وَما في الأرضِ منْ آهاتِ
حَرّى وَصباباتٍ وَسُكّرْ ،
كلُّ غيداءَ وقدْ خَاصَرها شابٌ
وَذابا فِي عناقْ .
ورأى الرائيَ هذا ثُمَّ قالْ :
إنَّ منْ أرضٍ ، ومنْ تُربٍ ،
ومنْ هذا العَماءْ ،
خُلِقَ الأوَّلُ لعنَهْ ،
وأخوهُ منْ ضياءْ . . . .

بَوّابَهْ

يَمرّونَ منها كلُّهمْ ، كُلُّ حقبة ،

قتيلٌ ، عشيقٌ ، قاتلٌ ، مُدْنَفٌ ،

فتىً يذوبُ قصيداً ،

كوكبٌ ثغرُهُ سَما ،

فتاةٌ كأنّ اللهَ صاغَ بِكَشْحها

غزالاً ، بِعيْنيْها مَهاةً ، بِثغرِها

ينابيعَ مِنْ شَهْد مُذاب وكوثرِ . .

يمرّونَ ، كلٌّ حاملٌ قلبَ صَدْرهِ

بيمناهُ ، حتّى يعرفَ الجارُ جارَهُ ،

ويفرحُ إذما قلبُ جارٍ على الثرى

تمرَّغَ ، أوْ سالَ النجيعُ ، وَحَرَّقا .

يمرّون ، سيفٌ حاصدٌ ، وحقيبةٌ ،

وَعُصبةُ قهرٍ في مَساراتها ضَنى .

بِناءٌ وبُنيانٌ ، سماءٌ وأنجُمٌ ،

يُمزِّقُها طاغٍ رِقاعاً ، وَيبتني

بآفاقها أطلالَهُ ، كُلَّ مَعْلما .

ينوحُ إذا ما يومُهُ مرَّ هادئاً ،

ويرقصُ إذْ غَذَّاهُ حقداً وعلْقَما .

ويصرخُ في جيشٍ أفاعٍ وَعُصبةٍ ،

يُربّيهمُ فَتْكاً ، وذلاًّ وحربةً

تَعجُّ بها الويلاتُ ، تحفرُ أعظُما .

وَيا وَيْلَ أُمٍّ إنْ تَحَلَّبَ شدْقُهُ

بِ : لاء ، وَرفضٍ ، أوْ حوارٍ ، فإنَّهُ

يكونُ انتهى منْ عالَمٍ ضاقَ مثْلما ،

تضيقُ قبورٌ ، ثُمَّ ترمي جنازةً

عظاماً ، رميماً ، خيبةً ثُمَّ طَلْسَما .

يمرّون ، يا ماءُ اركَبِ الأرضَ بَغتَةً ،

وَسَافرْ سفيناً فوقَ أجبالِ مَوجه ،

فَلا (أَلْفُ عامٍ تجعلُ الأرضَ بلسَما) ،

ولا ألفُ عامٍ تُخصبُ الغيْمَ والسَما ،

ولا (كُلُّ زَوْجٍ في سفينٍ) يَراعُهُ

مُضيءٌ ، ولكنْ يَحْسَبُ الكُفْرَ مَغنَما .

يمرّون ، فالأمصارُ تُشوى ، بُناتُها

عبيدٌ لطاغٍ ، سَوْطُهُ الليلُ دامسٌ ،

وَجَزْمَتُهُ أُفُقٌ ، وقامةُ بأسه

عمودٌ ، أمامَ الشمسِ يحفرُ بئرَهُ ،

تَماثيلهُ في كلِّ حَدْبٍ كأَنَّهُ

سفينٌ وطوفانٌ وَنُوحٌ وَصحبُهُ ،

وَتبقى على الأرض التي كلُّ لحظة ،

ضِباعٌ وأشلاءٌ ، وسيْفٌ ، وَخاتَمٌ ،

(ويوسفُ) والبئرُ المُدوَّنُ ، أُخوَةٌ ،

(عَزيزٌ) وزوجٌ ، قلبُها قَلْبُ مُدْنَفٍ ،

(أَصابعُ تُفرى) ، إذْ نَظرْنَ ، كأَنَّنا

بلوحة (دالي) ، ذاكَ فوق تَصوُّرٍ .

يمرّون ، هذي الأرضُ مازالَ ضَلْعُها

غُثاءً ، هشيماً ، مَيّتاً كُلَّ ميتَةٍ .

علامَ إذاً حَمْلٌ ، مَخاضٌ وقادمٌ ؟؟

ولمْ يبقَ إلاّ الليل يَمشي مُلثَّما .

وبوّابةٌ منها ، بها كلُّ فاجرٍ ،

يمرُّ كلصٍّ أوْ دَعيٍّ بخيله ،

يُخلِّعُها ، يَقتادُها مثلَ عانسٍ ،

ويتركُ أنياباً على البابِ مَعْلَما . .

توضيح:

ما هو بين أقواس عبارة عن إشارة إلى قصة نوح ومكثه في قومه ألف عام يدعوهم إلى الإيمان ونبذ الشرّ ، وأيضاً قصة يوسف بن يعقوب وأخوته وعزيز مصر وزوجه .. إلخ

وأمّا (دالي) : فهو الفنان السوريالي الشهر : سلفادور دالي .

سريرُ الأرمَلَهْ

لِمَ يا ربُّ هذا الظلامُ الكثيفُ بِعيْنَيَّ ،

ذي رِعْشةِ العظْمِ ،

بَرْدٌ يُخلخلُ هذي المفاصلَ ،

يَجعلني تُوتةً شائخهْ .

هذا الدّثارُ العجوزُ ،

الغرفةُ المُحدقهْ .

لَمِ يا ربُّ ؟

هذا شبابي الذي جفَّ أوْ كادَ ،

نَبْعٌ ، تغورُ المياهُ، تغورُ إلى آخرِ

القلبِ ، يذبحني صوتُ شابٍ ،

ويذبحني رجلٌ قادمٌ في ضبابِ المساءِ ،

تَلَفَّعَ بالصمْتِ والكبرياءِ ،

و صمَّمَ أنّي لهُ الآنَ . . .

هذا الذي يحرثُ الحقلَ ، يحرثُني

تُربةً شَقَّقَتْها السنونَ ، ونامَ

بها الوقتُ ، كَهْفاً ، ملاذاً لأجناسِ

وَحْشٍ تَجيءُ ، أفاعٍ تَفحُّ

وتلسعُني حارقه .

ها أنا . . .

سيَّدي القادمَ المجيدَ العتيدْ .

سأرسمُ نَفْسي أمامكَ ،

أرسمُ هذا الجَسَدْ ،

فَبي مِنْ تَشهّي الإناث ،

كَتلكَ التي راوَدَتْ يُوسُفاً ،

وبي مِنْ غَوايات صدْرٍ و نَهْدٍ وجيدٍ

يفيضُ ، وبي كلِّ جارحةٍ كهرباءْ .

ويا سيّدي القادمَ الفحلَ ،

ما زالَ مَتني شَلالَ ضَوْءٍ ،

و فَرْعي ينامُ به البدْرُ ،

ثَغري امتلاءُ الخوابي ،

وفخذايَ كَوْنٌ من اللذَّةِ المُشتهاةِ ،

. . . هناكَ المَلكْ ،

تَحفَّزَ يا سيّدي ، واستوى ، واحتَرَقْ ،

وردفايَ ، ظهريَ ، ساقايَ من نخلِ

شطِّ العَرَبْ .

وهذا السريرُ اللعينُ ، الظلامُ الرمادُ

الخشبْ، ينامُ ، ينامُ ،يغطُّ ولا يعرفُ المسأَلَهْ ،

لِمَ يا ربُّ ؟ قد صرْتُ كالغرفة المُقفَلَهْ ،

أقومُ ، أُمزّقُ جسمي بِشَفْراتِ روحي ،

وألعَنُ ، ألعَنُ هذي الوسادَةَ ، حين أراها

تُباعدُ فَخْذَيَّ ، تغفو على أرضيَ القاحلهْ .

فأشربُ من دمع قلبي ، دماءَ عيوني ،

وأُسدلُ جفنيْنِ في غربتي وأنتظرُ الـ . .

فيأخذُني النومُ في رِحلةٍ لا تحولْ .

كَنَّاسْ

أيّامُهُ مَزَقَتْ روحَهُ ، فَاستبدَّ بهِ
الوقتُ طاغيةً فوقَهُ ،
هاصراً كلَّ أحلامه والرُؤى المُثقلاتِ
بأجفانه ، وخُطاهُ تَغذُّ السَفَرْ .
شارِعٌ مَلَّهُ ، وزُقاقٌ تآكَلَ منْ كثْرةِ
السيْرِ ، أقدامُهُ الراجفَهْ ،
ويَلبَسُ سِروالَهُ وقَميصاً يُزوِّقُهُ العَرَقُ
الآدميُّ ، ويدفعُ في رحلة اليومِ
(حاوِيَةً) ، يجمعُ فيها القُمامةَ
والوسَخَ الشارعيَّ ، وأكياسَ أبنيةٍ واقفَهْ ،
تُراقبُ هذا الشَبَحْ .
لقد شاخَ في رحلةِ اللانهاياتِ ،
شاخَ به شارِعٌ ،
والقَضاءُ يُراقِبُهُ ساخراً ،
أخرسَ الصوتِ ،

مَوقفهُ ثابتٌ لا يحولْ .

يَسيرُ . . بظَهْرٍ يُقوّسُهُ (فوقَها) ،

وهوَ في نفسه : إنَّ فيها خَبيئَةَ يومٍ ،

وعُمْراً مَضى ، سوفَ أنبشُها قطعةً ،

قطعةً ، وأُفَلّي ضفائرَها مُبْصِراً ،

فَعَلّي ، أَصِلْ . . .

وحينَ الوصولُ إلى تلَّةِ المُهملات هناكَ ،

وقدْ أخذَ الجهدُ أَمشاجَ كَفَّيْه ، نافرةً

كَالبوراي ،

ويقلّبُها ، ناظراً عَبْرَ أكداسها ، علَّهُ . .

ثُمَّ يَمضي إلى السوق ، يأخذُ منْ وَرَقِ

الخَسّ ، منْ بَقَلِ الأرضِ ، أشياءَهُ

المنزليَّهْ ،

وَيدلُفُ في قَبوه ،

هُناكَ عَجوزٌ تُراقبُ خُطوتَهُ ،

وتُصغي إلى سَعْلةٍ مَعدنيَّهْ ،

وتفتحُ بابَ جَنّتها الدُنيويَّهْ :

تأخَّرْتَ يا سيّدي ،

فَخُطاكَ التي علَّمتني المواعيدَ ،

صوتُ حاوية الكَنْسِ ،

ضحكتُكَ الملكيَّهْ ،

كأنّي أرى الوقْتَ يأْكُلُنا سيّدي ،

وأرى في المَنامِ حصاناً ،

سَيخطفُني ، يَخطفُكْ ،

وينزلُ عَبْرَ النُحاسِ

إلى جَوْفِ هذي (الكُرَهْ) ،

انظُرَنْ سَيّدي ،

إنَّهُ قادمٌ يطرقُ البابَ ،

يدلفُ أغبرَ الوجهِ ،

عابساً وحزينْ .

وينظرُ عبرَ عينيْنِ ،

غَارَتا في حَجاجٍ ، بَدا بارِزاً ،

تَغضَّنَ جلْدُ أجفانه ،

وغدا رأَسُهُ مثْلَ بَيْداءَ ،

لا أُنسَ ، لا وحْشَ ، لا طيرَ ، لا شيءَ

يَدفعُهُ للحياةْ ،

و ينظُرُ مُتَّاقلاً بالحياةْ :

سنَمضي ، صديقَة عُمري إلى بِئرنا ،

فاغراً فَمَهُ ،

مُؤْذِناً بالرحيلْ . . .

الخُبْز

في لَيلة ساغبَة وجاحدَهْ ،

صَمَّمْتُ . . ، أمضي في طريقِ غربتي ،

وباحثاً عن الرغيفْ ،

وحاملاً عَصاً ، أَهُشُّ فيها ،

مُبعداً عن جَسَدي الذئابْ ،

وكُنْتُ ألتقي مُشَرَّداً في كلِّ مُفْتَرَقْ ،

أَشدُّهُ ، يَشدُّني ، نَسيرْ ،

وبعدَ ليلة وليلة ، وزمَن منَ الضَنى ،

وكنتُ ، كُنَّا نأْكلُ البقولْ ،

ونَرتدي الفصولْ ،

كُوفيَّةً رداءْ .

شعرْتُ أنَّ عُصبَتي قدْ أصبحَتْ فضاءْ .

وقفْتُ بينَ جَمْعها ، كالشيخِ في الحقولْ ،

مُردِّداً أقولْ :

فأنتمُ الصباحُ والأفولْ ،

وأنتمُ الذَّهابُ والقُفولْ ،

سيروا إلى خبزكُمُ وخلّصوهْ ،

ومزّقوا الطُغاةْ ، مَنْ قَتلوا الحَياةْ ،

وَجَمعوا أهراءَهُمْ من أرضكُمْ ، أجسادكُمْ ،

أبنائكمْ ، وَنسوةٍ في سيْرِها الثقيلْ .

وكانَ صوتي يَرتدي القَضاءْ ،

كأنَّهُ سَماءْ .

وسرْتُ فيهم ليلةً كَقمرِ التّمامْ ،

ندقُّ دَرْبَنا بعزْمنا الحديدْ ،

وَيَدُنا وعقلُنا : إرادةٌ ، تُحرّرُ العبيدْ ،

وحينَ جاءت المُواجههْ ، وَحُرّرَتْ قيودْ ،

وَقُطّعَتْ رقابُهم بالسيفِ والسكّينْ ،

تَصدَّرَتْ قافلةٌ وأعلَنَتْ :

حُرِّيَةَ البلادْ ،

وأَنّها قدْ حَرَّرَتْ أَنفُسَها

وشعبَها الحزينْ ،

وَقَبَعَتْ في غرفة الدَهاءْ ،
تُصدّرُ الأوامرْ ،
وَتبتني القصورْ ،
وتأخذُ الرغيفَ والغذاءْ ،
ذَريعةً ،
وأنّها مُوكَلَةٌ بالذودِ والفداءْ ،
وَكُلُّ شيءٍ عادَ للوراءْ . . .

اكتشافُ النار

فِي ليلة مُظلمة وبارِدهْ ،

(بروميثيوثُ) (١)يَمشي ، يَجوزُ الشّعابَ ،

على حَذَرِ الهرّ ، خَوْف الوعول ،

وَيمشي لعلَّ السماءَ تُحدّدُ كُوّةَ

نور ،ضياءْ .

تُمزّقُ تلكَ- إذا شاءَ زِفْسُ -لعلّ

النجومُ ، فَينتشرُ النورُ والضوءُ

من قُوّةٍ في الخفاءْ .

ويمضي . . إلى نفسه داخلاً ،

ويخرجُ من نفسه ، فَيعيدُ

التراكيبَ ، والماوراءْ .

وَيَقْدَحُ في حجرتيْنِ ، يُحاول أنْ

(١) بروميثيوث: بطل أسطوري، وابن الاله زِفْس — كبير الهة الاغريق — كان قد اكتشف النار، وعلّمها البشر الفانين، فحكم عليه زفس بالصلب على الصخرة في أعالي جبال القوقاز، تنقر الطير من قلبه مدى الدهر .

يسمعَ الصوتَ ، يُؤنسُ وحدتَهُ ،

يُبدّدُ من حولِه ساغباتِ الضواري ،

ويخرجُ من ذلكَ القدْحِ ما يُشبهُ النورَ ،

كالبرقِ ، يُصعَقُ ممّا جرى ،

ولا يعرفُ المسأَلَهْ ،

يُعيدُ اقتداحاً جديداً ، بِحَزْمٍ

وبالنَظَرِ المعرفِيّ ، بِمَنْ يرتقي

سُلَّماً كَيْ يكونْ .

وتخرجُ تلكَ الشرارةُ واضحةً ،

تحرقُ ثوباً يُدثّرُهُ ، وتحرقُ

قَشّاً على جانبيْه ،

تُضيءُ المفَازةَ حولَهْ ،

وَتُعطيه دفئاً جديداً على روحه ،

وحالةَ وَهْجٍ بأضلاعِه ، وشيئاً من

القوّة الغامضهْ ،

وتمضي السنونَ ، يُفعّلُ هذا الحَدَثْ ،

فَيشوي على (ناره) تلكَ صَيْداً

تلذَّذَ في أكله ، واتّقى البرْدَ فيها ،

الضياءُ الذي فتحَ الدربَ في الحالكات ،

وَشَيْءٌ كثيرٌ من النارِ ، في النارِ كانْ .

يُقرّرُ ،

لا بُدَّ أنْ يعرفَ الناسُ هذا العطاءَ الجميلْ .

وَيعرفُ زِفْسُ الجسورُ الحقودُ

نوايا ابنه ، وخباياهُ ، ماذا يُريدْ .

وَيصلبهُ في مَهَبّ الرياحِ على صخرةٍ

في الجبالِ العليّات ، تأكُلُهُ الطيرُ ،

تَنهشُ في قلبه الحُبَّ ،

كيْ لا يُعكّرَ صفوَ الإله ، وكيْ لا يُعلّمَ

ذاكَ القطيعَ من البشرِ التائهينْ .

بروميثيوثُ كانَ قد اختضَّ روحَ أبيه ،

ويعرفُ طغيانَهُ ، حكمَهُ الأزليَّ ،

ويعرفُ أكثرَ عن (هيرا) (٢)تلك الغيور ،
استعدَّ وَعَلَّمهُمْ لُعبةَ النارِ
قبلَ الصليبِ الجليلْ .
وَمِنْ ذلكَ اليومِ كانَ الصليبُ ،
و(تَمّوزُ) (٣)، ثُمَّ المسيحُ ، الحُسيْنْ .
وذاكَ الفضاءُ من الذبحِ والقهرِ ،
كانَ الطُغاةْ ،
تَناسلَ من صُلبهمْ كلُّ جَهْلٍ
وليلٍ ، وكلُّ الزُناةْ ،
وكانَ على ضفَّةِ النارِ يرقصُ
ذاكَ الصليبُ المُضاءُ بنورِ الحياةْ .

---

(٢) هيرا : زوجة زفس، امرأة اشتُهرت بحسدها وغيرتها وعدوانيّتها وبغضها للكائنات.

(٣) تمّوز : هو الإله البابليّ الجميل الذي أنزلته عشتار — إلهة بابليّة — إلى العالم السفلي، وقُتل هناك، وكان ينبعث من الأرض مع كل ربيع، تشكيلا جديدا للحياة .

قارِئُ الكفِّ (وَرّاقْ) . .

إنّهُ يعرفُ أرقامَ نقودٍ في جيوبكْ ،

يعرفُ الزوجةَ إنْ كانتْ تَخونْ ،

يعرفُ الصِبْيَةَ ، والمستقبلَ الآتي ،

وما سوفَ يكونْ .

إنّهُ بحْرٌ من العلمِ ، سَفينٌ فوقَ

ماءِ (المُتوسِّطْ) ،

كلُّها ملأى عنَبْ ، وصبايا وذَهَبْ . .

آهِ . . يا ورّاقُ ما أقسى لَياليكَ ،

وكمْ أنتَ شَقيٌّ . .

كُلُّ أبنائكَ يا ورّاقُ في جَيْبَةِ شارعْ ،

وَنساؤكْ . .

أيّها المِسكينُ في جَوْفِ المضاجعْ ،

ترتمي واحدةٌ منهنَّ كالفستقِ

في كَفِّ لِطامعْ .

أيّها المبحوحُ في أقنيةِ التلفازِ

تَسعى ، تجعلُ الأرنبَ ثَوْراً ،

تجعلُ الفأرةَ هرّاً ، تَستبيكَ الفاتناتْ .

قُلْ بربِّكْ ، هلْ تكونُ المرأةُ الأشهى . .

إذا في حَمْلها . . في آخرِ الحَمْلِ . .

أمْ المرأةُ قبلَ الحملِ . . أمْ تانكَ

في عُلِّيَّةِ العذراءِ . . أمْ تلكَ التي

تعرفُ أكبادَ الرجالْ . . ؟؟

قلْ بربِّكْ ،

هلْ سَماءٌ كلُّها ملآى بأطنانِ النجومْ . .

هلْ ستَغدو مرّةً واحدةً منْ غيرِ نجمٍ

واحدِ ، أمْ أنَّ في الأمرِ ظنونْ . ؟؟

وهلِ العنقاءُ يا ورّاقُ قَبْلَ الحَرْقِ كانت

أمْ من الحرقِ تقومْ . ؟؟

وأجابَ القارئُ الورّاقُ :

يا فهمانُ ، هذي المهنةُ العَمياءُ ،

والدَّرْبُ مَسالكْ ،

أنتَ تُعطي الآخَرَ الضوْءَ الذي يختارُ ،

تُردي نفسكَ الحرَّى المهالكْ ،

هالكْ ،- يا أيُّها الفَهمانُ -كلُّنا

وَابْنُ هالِكْ . .

المُهرِّجُ (كشْتبانْ) .

فِي ساحة البَلدَة

مزمارٌ وطَبْلٌ وغَناءْ ،

ولَفيفٌ من رجالٍ ونساءْ ،

صِبْيَةٌ يَملؤهُمْ عشْقُ اكتشافِ الوقتِ ،

قبلَ الوقت ، والوقتُ هواءْ .

كلُّهمْ في خَدَرِ النَشوةِ من صوْتٍ

جَهوريٍّ يُغنّي : الآهَ ، وَالأُوفَ ، عَتابا ،

ميجانا ، كَحْلا العُيونْ .

ثَمَّ شَخْصٌ قابعٌ كالقردِ في أوَّلِ

صَفٍّ ، عندَ أقدامِ الميامينِ ،

وأصحابِ الكرامات ،

أُولي بأْس وَجَاهْ .

قالَ ذاكَ الجالسُ البرميلُ ، في

تَكريشَةِ الثَوْرِ : سكوتْ .

وقفَ الناسُ ، وموسيقى ، وأطفالٌ على

أقدامهمْ يَنتظرونْ ،

فَهُمُ أَعرفُ بالجالسِ والكِرباجْ ! .

وَأَشَارْ : كشتبانْ ، أّيها القابعُ ،

يا ْبنَ الْ . . . والتَهريجِ والبِذْرِ

الحرامْ ،

أَضْحك الجمهورَ هيّا ، وَاعطِنا من

فمكَ الدُرَّ الكلامْ .

كشتبانْ ، وقفَتْ أعضاؤُهُ في ساحةِ

البلدة ، غنَّى ، ورقَصْ ،

ثُمَّ كالكلب نبَحْ ،

قلَّدَ الثَوْرَ وأصواتَ الحِمارْ ،

يا اااا سلامْ ،

ثُمَّ قالَ الحكمةَ المِسْكَ الختامْ :

أنتَ يا كرباجَنا العالي الجَنابْ ،

دونَ كرباجٍ تصيرْ، مثْلَ (اسكاريسَ)

مَنْ فَتْحَةِ (إسْتٍ) تتَلوّى ،

دونَ رأْسٍ أوْ قَدَمْ ،

في خروجٍ غامضٍ ، يا سيّدي الكِرباجْ .

ضَحكَ الثورُ كثيراً ، قبل أنْ

يَعرف تأويلَ الكلامْ ،

و المُهرِّجْ . . ،

بعدَ حينٍ

كانَ في دنيا الظلامْ .

الفأرةُ والهِرّ

ذاتَ يومٍ . .

خرجَتْ فأرةُ حقْلٍ من شقوقِ الأرضِ ،

بينَ العُشْبِ ، تحتَ الورَقِ اليابِسِ ،

يُغويها الطعامْ .

كلّما داعَبت الريحُ . . .

و صَاتَ الورَقُ اليابسُ ، هَسَّ القلْبُ ،

منها والعظامْ ،

وأرادَتْ أنْ ترى الأُفْقَ سماءً

قُزحيَّهْ ،

وترى هذا الفضاءْ .

وأرادَتْ أن تُغنّي ، رُبّما صَوْتاً

حنوناً ، أوْ مَقامْ .

تَرْقُصُ حتى يُستبَى - رُبّما -وأرادَتْ

فيها عشيقٌ قادمٌ مِنْ مَخبأٍ آخَرَ

مَذبوحٌ غَرامْ .

وأرادتْ . . .

أخرجَتْ رأْساً صغيراً ، شاربِاهُ

التَمَسا بَوّابةَ الكَوْنِ إلى المجهولِ ،

عَيناهُ كَما حَبَّه دُخْنٍ للطيورْ .

قَفَزَتْ في عَبَثِ المَقدورِ والمجهولِ

والكَشْفِ الجَسورْ .

كانَ هِرٌّ قابعاً . . ،

أَغْبَرُ كالأرضِ ، بلا لَوْنٍ صريحْ ،

كَتَمَ الأنفاسَ ،

عَيناهُ (كَرادارٍ) ، يَراها وهيَ تحتَ

الورَقِ اليابسِ ، يُغويها الخُروجْ .

لحظةٌ واحدةٌ مَرَّتْ فَقَطْ ،

كانت الفأرةُ في الشّدْقِ تُمزَّقْ ،

وترى الأُفْقَ المُعلَّقْ .

و غدا من ذلكَ الحينِ إلى الآنَ

حَياةُ الفأْرِ تحتَ الأرضِ

لا يَعرفُ أُفْقاً أوْ شُموسْ .

فوقَ - كما الفأرةُ -وغدا الهِرُّ

الأرض ، لكنْ

صَدْرُهُ والقلبُ مَشدودٌ إلى تلكَ

الشقوقْ . . .



تَأْشيرةُ خروجْ

سأخرجُ منْ وَطَنٍ أدمنَتْهُ القذاراتُ ،

أدمنَهُ الدودُ والمسخَراتُ ،

وهذا الصَدأْ .

وأَخرُجُ من جلدهِ ناشراً جُثَّتَهُ

في المنافي، دليلاً ومَعلَمَ

أنّيَ كنتُ القتيلَ وكانَ القتولْ .

وأَخرجُ من إرثهِ ،

إرْث عَنترة والبَسوس، وتلكَ ،

الصحارى، تمزّقُ أضْبابهَا الظهيرةُ ،

والشمسُ فوقَ القَحَفْ .

وأخرجُ من كلّ حَرْفٍ، تَسيلُ القصيدةُ

إمّا يُلامسُهُ خنجرٌ أو بَتولْ .

وأخرجُ، أخرجُ . . .
حتّى كأنّيَ ما كنتُ قَبْلاً ،
وَلا كانَ ذاكَ (الضَليلُ)، (الصريعُ) ،
(النّواسيُّ) و (المُتنبّي) وأشباهُهُ ،
وَصبْيَتُهُ أوْ حَلَبْ .
وأَخرجُ لا أعرفُ الوقْتَ والسَّنةَ المُقبلهْ .
الْرَمَيْتُ المسافات...وَأُمّي
ما بيْنَنا ، واتّكأْتُ على جرحها
طاعناً في الشّقاقْ .
وأخرجُ حتّى أَبي لا أراهُ ،
وحتّى الحقولُ، وحتى الحَصى ،
سأصنعُ من كَبِدي طائرةْ ،
وأَعْلُو، وأعلو ،
فإنْ جاءَني الشّرُّ مِنْ مَشرقٍ ،
تَخذْتُ الغروبَ سَبيلْ ،
وإنْ جاءني القَهرُ منْ شَمألٍ ،

تَخذْتُ الجنوبَ دليلْ ،

وإنْ جاءني الموتُ منْ كُلِّ تلكَ

الجهاتْ ،

أموتُ، أموتُ هناكَ بأعلى المقاماتِ ،

تأكُلني الطيْرُ ،

لا أَرضُ، لا إرْثُ، لا أُمٌّ، لا أَصْلُ ،

لاشيءُ، مَحضُ غُبارٍ ،

وَمحضُ فراغٍ قتيلْ . . .

مَسْأَلَهْ

كُلَّما أمعَنْتُ في السَّيْرِ بِدَرْبٍ
داخليٍّ، صاعدٍ من سُرَّةَ القلبِ
إلى أنحاءِ بيتِ اللهِ، في
قُبَّتِه المُثلى هُناكْ .
كُلَّما أمعنْتُ في عِشقٍ بعيدٍ
وبدائيِّ الوسيلهْ ،
كانَ يأتيني شعورٌ أنَّ للعشقِ
خَبايا وخَفايا دائمهْ .
فَرَميْتُ الجُبَّةَ البَيْضا ، تَعرَّيتُ ،
كأنِّي خارجٌ تَوّاً من البيتِ
القديمِ إلى مَفازات الحياةْ ،
وخلعْتُ النعلَ حتَّى مَسَّني
شَوكُ الطريقْ .
وانتقيْتُ الجهةَ المُظلمةَ السوداءَ
من بينِ الجهاتْ .

ثُمَّ شرَّقْتُ ،

أخذْتُ الغَرْبَ في قَبضتي اليُسرى ،

ومأساةَ الجنوبْ ،

ثُمَّ في قبضتيَ اليُمنى الشَّمالْ ،

الجِهاتْ : فإذا كلُّ

هيَ في القلبِ جِهَهْ، وهي في

السَّيْرِ طريقْ ،

وطريقٌ مفعَمٌ بالكفرِ والإيمانِ

والتجديفِ بيْنَ الضفَّتيْنْ . . .

شارِعْ

شارِعٌ موغلٌ في استقامته ،
لا زُقاقَ يُقاطعُهُ، لا إشارَةَ ضَوْءٍ ،
ولا مُنعطَفْ .
والبنايات، بعضُها فوقَ بعضٍ
على جانبيْهْ .
كلُّها عُلَبٌ باهتَهْ ،
يَخرجُ النَملُ منها إلى رزقه ،
عَبْرَ شارعه القَلميّ الطويلْ ،
ويَفْلَحُ، يَزرعُ، يأكلُ، يَمشي ،
يَبولُ على خَطّه المُستقيمِ ،
ينامُ بِتلكَ العُلَبْ .
ويَصحو، كأنَّ المسافات كلُّها
قطعةٌ منْ قَصَبْ ،
يَفيءُ إليها ، يُمَصْمِصُ سُكَّرَها الْجَفَّ ،
وانتهى في شِفاهِ الخَشَبْ . . .

عادةٌ، عادةٌ، يفلقُ المرْءَ خَطٌّ ،

يُحدّدُهُ شارِعٌ مَيّتٌ ،

وأُناسٌ على ضفّتيْهِ يَئنّونَ ،

ينتظرونَ الفراغَ الأخيرْ ،

وأنا ، أنتِ، أنتما ، أنتمُ المسأَلَهْ .

جِنازَهْ

وقدْ ماتَ هذا الذي يحملونَ جنازتَهُ
ذاهبينَ إلى مَقبرهْ ،
يُرقِّعُهُمْ أمَلٌ مُبهّمٌ ، وتَنبَحُ في
عُمقهمْ بُومةٌ ملأتْها السنونْ :
حكمةً، وأراجيفَ ، دمعةَ خوف ، قنوطْ .
ويعبَثُ أصغرُهُمْ خلفَ هذه الجنازةِ
بالوقت، يَمتشقُ الطفولةَ سيْفاً ،
ويركَبُ متْنَ الرياحِ، ويَمضي ،
كأنَّ الذي ماتَ شيءٌ على
عَدوة في الطريقْ .
وأمّا الذي شاخَ ينظرُ مِنْ بُؤبُؤيْه
إلى هذه الخاتمهْ ، وينتظرُ الـ . . .
الطموحْ ،مُنتَهى والفناءَ
ماسكاً، ماسكاً لحيَةً خُضّبَتْ بالصباغْ ،
ويسندُ رأْساً براحَتِه سادراً لا يريمْ .

وأمّا النساءُ النواحُ الصراخُ

البُكاءْ .

زوجةً ،يُضمّدْنَ آلامها

شَقَّها موتُهُ فارتَمَتْ نازفهْ ،

صِبْيَةٌ حولَها وشقاءٌ يلوحْ ،

وهذي الطريقُ التي سوفَ . . .

يا سوفَ ،

كيف النهاياتُ، أين البداياتُ ،

شكلُ المسافة، هذا التصوُّرُ ،

تلكَ التراتيلُ، والعَزْفُ

فوقَ التُراب الضريحْ ؟؟

ويا أيُّها الليلُ ،

إذْما دخلْتَ المحاقَ، ولمْ يبقَ

نورٌ سواكَ، تَرَّمدْ ،

وكَثِّفْ سوادكَ، وابعثْ إلى فاتنات

الترابِ ضياءَكَ، واعبَثْ بهنَّ

كَما يفعلُ البهلوانْ

سَيبترُنا ذلكَ الليلُ آت ،

فنذهبُ في غَيهبٍ لا يحولْ ،

كأنّا على الأرض مَحْضُ غُبارْ ،

كأنّا " الرفيعَ المقامِ ، الوضيعَ ،

الصغارْ " غُبارٌ ، غُبارٌ تُبعثرُهُ

الشمس من نافذهْ ،

ليظهرَ ذاكَ البهاءُ المؤقَّتُ ، يَفنى

إذا ما ذُكاءُ (١)انتهَتْ في السريرْ .

ويمضي الذي رفع السَوْطَ يوماً ، ويمضي

الذي مات جوعاً ، ويمضي الذي

شَبَّ، لا أُمَّ ، لا أبَّ ، لا غرفةً

أوْ جدارْ ونَمضي . . .

ويرفعُنا فوقَ أكتافهِمْ

فتيةٌ قادمونْ ،

---

(١) ذُكاء : هي الشمس .

ونمضي، كأنَّ . . . استوى في

متاهات أرواحنا الزمانُ ، الأراضونَ ،

تلكَ المجرّاتُ، ذاكَ الحوارْ .

ويبقى على تلَّةٍ في البعيدِ البعيدِ

هناكَ ، مُجرَّدُ صفصافةٍ ،

وبقايا سؤالٍ ، وصَحْنٌ من الفولِ

للقادمينْ .ويا سيّدي الموتَ ،

هذي جِنازتُهُ ، شَارِباهُ ، وأضلاعُهُ ،

رأسُهُ ، والحَجاجُ الذي كان

فيه الفضاءْ .

تَقدَّم ، تَقدَّمْ ، وخُذْ كُلَّهُ

واذهبَنْ في العماءْ .

فِي المَحَطَّةِ الآسيوَّيةْ

فِي المَحَطَّة الآسيوَّيَة ،

قطارٌ ومجموعةٌ مِنْ بَشَرْ ،

بَعضُها واقفٌ ، بعضُها يشربُ الشايَ ،

بعضها سادرٌ، وبعضٌ يخبُّ إلى

غايةٍ أو مَصيرْ .

ثَمَّ طفلٌ يبولُ على سكَّة سيْرِ

القطارات مُنتصباً كالعَلَمْ .

هُناكَ فتاةٌ تمارسُ لُعبةَ حوَّاءَ

في صدْرِ شاب حليقْ ،

يَذوبُ إذا حدَّقَتْ، ويذوبُ إذا أَغمضَتْ ،

ويذوبُ إذا ذَوَّبَتْ ضحكتَها في المكانْ .

في المحّطَة الآسيويةِ، كُومةٌ من مَتاعٍ

هناكَ، وبعضُ اللصوصِ يسيرون في

حَذَرِ الخُنفساء ،

ورابطةٌ للتسوُّلِ يستعرضونَ الزِّحامْ ،

وأمٍّ وأطفالُها حولَها يَملؤون حناجرَهم

بالدعاء، لمَنْ يَمرقُ كالسهمِ ، عَلَّهْ . . . .

هناكَ يسيرُ بطيئاً كما تفعلُ السلحفاةُ

وينظرُ في ساعةٍ سَوَّرَتْ معصمَهْ .

يَمُرُّ القطارُ ، القطاراتُ ، واليومُ

والليْلُ والصيفُ والثلجُ ، . . .

يبقى يُحدّقُ في ساعة الوقتِ .

والريحُ تَصبغُ لِمَّتَهُ بالبياضِ الشفيفِ ،

وتأخذُ مِنْ بُؤْبؤيْه البريقْ ،

وَتُلبسُ سِحنتَهُ بالخريفِ الذي لا يُسافرُ ،

فجأةً ،

ويُصدمُ هذا الغريبُ بِساعته الواقفَهْ ،

ويُصدَمُ في زمَنٍ خانهُ، وَمِنْ سَفَرٍ

ثابتٍ في محطَّته المُشرَعَهْ .

يُقرّرُ . . . ،

ما زالَ وقْتٌ بِجعبته ،

سَيوصلُهُ في أمانٍ إلى . . .

إلى أين يا صاحبي !!؟؟

وَيصعَدُ أوّلَ قاطرةٍ قادمهْ ،

. . . .

يَتقاسَمُ السَفْرُ أسمالَهُ ، ويبيعونَ

ساعتَهُ الواقفهْ ، و . . .

وُيلقونَ جُثّتَهُ في المسافة بيْنَ

المحطّات، بَعْدَ حَنوطٍ وَترتيلة للطقوسْ .

وُينهون طَقْسَ الفجيعةِ في مقصفِ القاطرهْ ،

وَبين الأكُفّ

تلوحُ كؤوسٌ من الجعَّة البارِدهْ .

في المحطّة الآسيويةِ شيءٌ

غامضٌ وَمُثيرْ . . .

وَجْهْ

لسْتُ أدري، أكانَ فيه انخطافٌ ،

رُؤيةٌ أمْ تَصوُّفٌ وصَلاةُ ،

عَبَثٌ أمْ تَرمُّدٌ ، يَستوي في حَناياهُ

قَبْرٌ وَمَيّتٌ وَحَياةُ ؟؟ .

رَميْتُ العصافيرَ ، أزرعُها وردةً ، في

طريقِ تَصوُّفه ، في مفازاته الدائمهْ .

وقفْتُ على طللٍ قادمٍ من قصيدةِ

عشْقٍ، رشقْتُ الحصى لاعباً في

انحناءةِ نَهْرٍ، لأَسمعَ تمتمةَ الماءِ

والوشوشاتِ الغريبةَ ،

أَرسمُ وجهاً على زرقةِ الماءِ

يَمضي .

أردْتُ امّحاءَ المسافةِ ما بيننا ،

فاقترْبتُ من الوجهِ أَنبشُ فيه السنينَ ،

وأنبشُ كُلَّ احتمالاتِ عيْنيْنِ ، أنفٍ ،

فَمٍ مُطبَقٍ ، وجفونْ ،
تجاعيدَ في سُرَّةِ العُنْق ،
قلتُ: لعلَّكَ من جهة الغرْب ،
أدميْتَ كاحلكَ الشْاخَ من تَعَبِ السيْرِ ،
تَطوي المسافةَ حتّى تموتْ ،
أمْ أنتَ الذي زرعَ الشرقَ قيثارةً
وَارتمى في الأغاني ،
وكُلُّ المفاتيحِ (صُولْ) ؟ .
وقدْ زرْتَ ذاكَ الجنوبَ ، علامةَ قهرٍ
وَظُلمٍ ،
ولونٌ كما غاسقٍ ،
أتيْتَ على ثَبَجِ الثلْجِ من عاتياتِ
الشَمالِ ، ترِيحُ العظامَ من البرْدِ ،
في زرُقة (المُتوسّطِ) هذا ؟ .
أمْ أنتَ المُعمّرُ هذي السنينَ ،
ولا تعرفُ المسأَلَهْ ؟

أأنتَ الفراغُ الضليلُ، وهذا الحليبُ

الذي ثَدْيُ (حَوّاءَ) أرضَعَكْ ،

وماذا مَعَكْ ؟ .

أشعْراً تقولُ وفلسفةً ، أمْ مُجرَّدَ

وَهْمٍ على أرصفَهْ ؟ .

ثيابُكَ . . !

إني أرى في تَضاعيفها احتمالاتِ ما قلْتُ ،

قلْ لي بِرَبِّكَ ماذا تكونْ ؟؟؟ .

وقالَ الذي جاءَ منْ لا جِهَهْ :

فأنتَ إذاً ذلكَ العاشِقُ الصَبُّ ،

ذاكَ العميدُ ،

وأنتَ المُشكّكُ فِيَّ ، المكابِرُ ،

أنتَ الجنونُ بِعينيْه ، أنتَ الضلالُ البعيدُ .

انظرَنْ أيها الطفلُ ،

حَدّقْ بعينيَّ ، واسمَعْ وَجيبَ الكلامْ ،

سَتعرفُ أنَّكَ والوجْهَ هذا اكتمالٌ ،

فَشيخوخةٌ ، فَانهدامْ ،

سأزرعُ فيكَ المَسافاتِ ، أزرعُ فيكَ

البداياتِ ، أزرعُ فيكَ اللغاتِ ،

وأزرعُ فيك التَّهجُّدَ وَقْتَ الظلامْ ،

لتعرفَ (أَنَّا) معاً واحدٌ ،

وتعرفَ (أَنَّا) معاً حالتانْ ،

ولنْ يحصلَ الدمجُ ، لنْ يُرتجى الانقسامْ .

سَنبقى كَما أُخطبوط ، يَغذُّ المسافةَ

في البحرِ ، يَفرمُهُ الصخْرُ ،

يأكلُ تيكَ العظامْ ،

ويشربُ ، يشربُ ماءَ البحارِ ،

ولا يرتوي، لا يموتُ ،

وبينَ الحياة وبينَ المماتِ

يعيشُ حياةَ الحُطامْ .

اسمعَنْ أيُّها الطفلُ آخرَ تَنهيدة ،

وَاكتَواءً على القَلْبِ ،

وَاسمعْ بِجلدكَ ، وأبصرْ بأُذنيْكَ ،

وأبحرْ بِعينيْكَ ، في عالَمٍ من

قَتامْ ،

كأنّي وأنتَ ضَنىً دائمٌ ،

فأنتَ الطفولةُ ما زلْتَ ، أنتَ الذي

كنتُهُ أيّها الطفلُ يوماً ، وكُنْتُ ،..

ولكنّني الآن أبحثُ عمّا سَيسترُ

هذا المَشيبَ ، وعنْ مَقبرهْ ،

وَفَأْس سأحفرُ فيها ضَريحي .

تعالَ وكنْ عاقلاً ، وانتبهْ ،

فَبعدَ مُواراة جسمي ، وتَرتيلة

وَحَنوطٍ يليقُ بشيخٍ جليلْ ،

اذهبَنْ في الطريقِ الطويلْ ،

سيعرفُ وجهَكَ طفلٌ جديدٌ ،

يَلوبُ المفازةَ ، يبحثُ عبرَ التجاعيدِ

للرملِ ، عمّا يُسمّى الأَثَرْ ،

وتعرفُ ذاكَ الغلامْ ،

. . . ويَمضي إلى غُرفةِ القلبِ

يَمتَحُ روحاً من النارِ ،

تَمضي إلى غرفة القبْرِ ،

يَذهبُ ذاكَ الأَثَرْ . . .

ليلَةُ سَمَر

قالَ : إنَّ الطَّقْسَ يأتي من زمانٍ

مثْلَ ساعهْ ،

مرّةً يأتي سديماً وثلوجْ ،

ثُمَّ صحْواً ، فَرياحاً ، فشموساً ،

فغُبارْ .

وقالَ آخَرْ :

إنّهُ مَحْضُ فصولٍ تَتوالى ،

تجلبُ الموتَ الغَرَقْ ،

تجلبُ الصَّهْدَ ،

وصحراءُ تَرامى ، كُلّما داعبْتَها أوْ

رُمْتَها ،

أوْ في ثناياها اكتويْتْ ،

متَّ يا هذا ،

وَمنْ مَوْتٍ إلى مَوْتٍ مَشيْتْ .

وقالَ الثالث :

إنّها حَوّاءُ ، ذي الأُنثى مَجازٌ

وغَواياتٌ وَبَدْءٌ وَخِتامْ ،

إنّها تركيبةٌ مِنْ بَجَعٍ ، فجْرٍ ،

وَطَلٍّ وَمُدامْ ،

وهيَ أرضٌ وسماءْ ،

وتآويلُ على الدهرِ وآياتُ احتلالْ ،

وهيَ . . . لا تَفنى خلاياها ،

فَإمّا ذَكَرٌ حاولَ ،

لن يبعُدَ في أنحائها أكثرَ

من صحراءَ في أُفْقٍ مُحالْ ،

أَوْ مَتاهَهْ ،

كلمّا فَتَّحْتَ أبواباً إلى سِدرتها ،

أغلقَتِ الأبوابَ حتّى لا ترى حولكَ

إلاها ، ولا تعرفُ توقيتَ الفصولْ ،

فهيَ صيفٌ وشتاءْ، وخريفٌ وربيعْ ،

وهي هذا الكونُ والتكوينُ

والآتي وذاكَ الانعتاقْ ،

إنّها المُهرَةُ، أمداءٌ إلى اللامُنتهى ،

روحٌ ، شُعاعْ ،

وتَهاوِيلُ تَصاوِيرٍ، جِنانٌ ، فُسْتُقٌ ،

عَسَلٌ ، رحيقْ ،

فَادْخلوها، وادخلوا باباً ،

على مَيْسرة الباب (أثينا) ،

وعلى مَيْمنة ، أُنثى الأساطيرِ (عَناةْ) ،

واصْمتوا ، حينَ ابتداء الطقْسِ ،

بَدْءِ الخلْقِ، فعْلِ الخصْبِ ،

كيْ تبقى الحياةْ ،

وقالَ الرابعُ المُستوقدُ الآتي

كَما ريحٌ ولا يعرفُ أسرارَ الجهاتْ :

هَلّلويا .. وارفعوني ، وارفعوني يا ثِقاتْ ،

فأنا أوّلُكُمْ ، وأنا آخركُمْ ،

وأنا أوسطُكُمْ ، وأنَا كُلكُمُ ،

أنتُمْ بلا معنى إذا كنتُ بعيداً

في الغيابْ ،

فَاصحبوني بالنشيدْ ،

وَأضيئوا لي مصابيحَ المدينهْ ،

في دهاليزِ مروري والعبورْ ،

فأنا مَنْ يحطمُ الأسوارَ أوْ

يبني القلاعْ ،

وأنا مَنْ يعرفُ التّنينَ والبازَ ،

وحَلاّجَ سِرارْ ،

وأنا الخمرةُ والشارِبُ والتعتيقُ

في صُلْبِ الجرارْ ،

هلّلويا ، هلّلويا ،

واجعلوني الشمسَ في هذا المَدارْ .

وقالَ آخِرُ الحضورْ :

إنّهُ الكاذبُ هذا وهو ملعونٌ رجيمْ ،

وحَياةٌ كلُّها نسبيَّةْ ،

بينَ أُنثى كَعقيقٍ ،

وفتىً ظلَّ يحومْ ،

فهيَ تَخفى تارةً ،

أوْ تارةً تظهرُ كالماءِ وأحياناً تقومْ ،

من سَرابٍ أوْ عُبابٍ أوْ

مكانٍ في التخومْ ،

ثُمَّ ، يا ثُمَّ تَشيخْ ،

كَرحيلٍ دائمٍ نحو فَناءٍ دائمٍ ،

نحوَ انبعاثٍ دائمٍ ،

دائرةٌ مُحكَمةُ الإغلاقِ ،

لا كُوَّةَ فيها ، لا انهدامْ ،

وذَراري الكَوْنِ كالأقطابِ والتيّارِ

أوْ تلكَ النجومْ ،

كلُّها دائرةٌ في فَلَكٍ يَمشي ،

وتَمشي مُجْبَرَهْ ،

نحوَ غاياتٍ وآمالٍ ومأساةٍ

وما سوفَ يكونْ ،

ثُمّ تمضي في اختلاجِ الوقتِ

لا شيءَ ،

سوى دَرْبِ اللبنْ . . .

الأَسفار

-١-

كَان في البَدْءِ عَماءٌ ،

كان صوتُ الرَعْدِ ، والآهاتُ

تخرجُ مِنْ مَكانٍ مُظلمٍ كالليلِ ،

كَالتّيّارِ في البحْرِ العميقِ ،

كَلُجّة لا ينتهي فيها المكانُ ،

ولا الزمانُ ، ولا تؤطّرُ مَرحلَهْ .

ويمرُّ وَقْتٌ ليسَ يُعرفُ بَدْؤهُ ،

لا تُعرفُ الأشياءُ والحاجاتُ ، والخَلْقُ

القديمُ، وليسَ ثَمَّةَ سُنبلَهْ .

بَلْ كانَ لَيْلٌ ، رُبّما في مَتْنه

المشدود كالرمحِ المُثقَّفِ ، يَبتدي

خَلْقٌ جديدٌ في زمانٍ مُبهَمٍ ،

خلْقٌ بغيرِ أبٍ ولا أُمٍّ أتى ،

لا يَعرفُ الحَمْلَ العظيمَ أوِ الرغابْ ،

وبغيرِ شكْلٍ أو جلودٍ أو ثيابْ

لا، ليسَ أسماءٌ لهمْ، بلْ لمْ

تكنْ لُغَةٌ وأحرُفُ منْ هجاءْ ،

ولْم تكن أرضٌ ، ولم تكن السماءْ ،

كان هذا الخْلقُ يأكُلُ بعضَهُ ،

ويعيشُ مبهوراً، يعيشُ بلا أمامٍ

أوْ وراءْ ،

وليسَ مِنْ جهةٍ إلى الأعلى ، أوِ الأدنى

بل التكوينُ والكونُ العَمَاءُ

منَ العَماءْ . . .

ثُمَّ من هذا الظلامِ ، ومن نهاياتِ

العماءِ ، ومن إرادةِ كائنيْنِ ،

هما كيانٌ واحدٌ كانا، وكانَ البدءُ

والكَبَدُ الجليلُ ، وكانَ عصيانُ

الأوامرِ في السماوات العليّاتِ ،

الجِنانِ ، وكانَ أنْ خَرجَ الشقيّانِ

اللذانِ هُما . . .

ويرتسمُ السقوطُ على مكانٍ واضحٍ ،

وتكونُ أرْضٌ تحتَ أقدامٍ تُكَلِّلُها

وتَفتحُ بُؤسَها وهناءَها ، وتَغُدُّ . . .

تكتشفُ المكانَ وما يكونْ .

ويكونُ صحْوٌ، وانقشاعُ الليلِ ،

بدْءٌ الشمسِ والرؤيا ،

وبدْءٌ للمخاوف والظنونْ ،

ويكونُ طقْس الحُبِّ بينهما وتَنبثقُ

الذراري من أديمِ الأَرض ، من جَسَدٍ ،

مُجاسَدَة ، ومنْ إغواءِ أُنثى ،

وابتدا الاسمُ المُقدَّسُ والجهاتُ ،

وما يَصب من السماءِ على . . .

وكانَ بينهما فَضاءٌ آسِرٌ ،

وتعاقبَ الليلُ النهارُ ، الشمسُ والأقمارُ ،

والسنةُ الفصولُ ،

تَحدَّدَتْ أركانُ هذي الأرضِ ،

بَسْمَلَها الإلهُ ، وقالَ كوني :

تُحفَةً وغَوايَةً ، حَرْباً ، سلاماً ، محنةً ،

وقصيدةً ، جوعاً ، شَبَعْ ،

كوني التَّضادَ ، وكُلَّ أشكالِ الثُنائيَّاتِ

في روحٍ تَمورُ كَمرجَلٍ ،

ارتعشَتْ منَ الكَلِمِ الجليلِ ، وهَدْهَدتْ

أشواقَها ، وثنَتْ شفيفَ الثوبِ عن

سَاق ، فَشفَّتْ فضَّةً كالجدولِ ،

وتهادَت الأُنثى بها ، كالليلِ والمصباحِ ،

نصْفٌ مُظلمٌ ، والآخرُ المصباحُ دَرْبٌ خاتلٌ ،

يُفنيكَ ، لا تصلُ المَقامَ ، وليْلُهُ لا ينجلي ،

وكانَ أنْ بدأَ الطريقَ السَّفْرُ ،

وابتدأَ الحياةَ ، وما تَنزَّلَ منْ عَلٍ .

. . . .

-٢-

وبعدَ . . . ، بعد ليلةٍ وليلتيْنِ ،

زمَنٍ من الضّنى، ومن شقاءٍ مُنَزلٍ ،

يقومُ من صُلبهما ذئبٌ يَجوسُ غاسقاً ،

ويبتني كهوفَهُ ، يَملؤها بالليلِ والجحيمْ ،

ويصرعُ الأخَ الرحيمْ ، يأْكُلُهُ ، يأكُلُهُ

بلذّةٍ وخافقٍ رجيمْ .

ويأخذُ النساءَ هاتِه حاضنةً لمائه ،

ومُرضعاتِ نَسْله ،

يكتشفُ الحديدْ ،

يُعطيه قوّةً ومَطمَحاً ، وأُفُقاً جديدْ .

يقومُ مرّةً عاشرةً للبطشِ والحريقْ ،

ويُغلقُ الطريقْ .

ويُصدمُ الإلهُ في سُلالة التُرابْ ،

لا بُدَّ منْ مُواجَهَهْ ، لا بُدَّ منْ تَضادْ ،

ومنْ سناءٍ ساطعٍ يأتي من التُرابْ ،

فتَنجلي الطريقْ، ويبدأُ السَّفَرْ ،

وَيُخلَقُ الطموحُ من جديدْ ،

ورغبةٌ تسيرُ في الوريدْ . . .

وقرَّرَ . . الطوفانَ ، يحصدُ الظلامَ

والجُحودْ ، وكانت السيولُ والرعودْ ،

وزُلزِلَتْ، وخُسِفَتْ ، وارتعشَتْ . . . ،

وارتعشَتْ وعادَت الحياةْ .

وابتدأَ القصيدُ يُدفِئُ العظامَ ،

يَرتقُ الجراحْ ،

وانبثَقَتْ أسطورةٌ هنا وملحَمَهْ ،

وَسَفَرٌ إلى السماءْ .

تَقدَّسَتْ امرأَةٌ ، وكُتِبَتْ أسطورةً

منَ البهاءْ .

لأجلِها تشتعلُ الحروبُ ، يبدأُ الحَصادْ ،

وَينتهي (تَموزُ) في الرمادْ ،

وَوَحدها تُعيدُهُ ، وتنفخُ الحياةْ ،

وَتَبعثُ الأَملْ .

وَترتقي إلى الذُرا ، إلى السَّماءْ ،

تكونُ ربَّةً ، وزوجةً غيورْ ،

وَفتنةً لا ينتهي أُوارُها ، ولا يموتُ

خصبُها ولا يَشيخْ ،

وأَنَّها بَوّابَةُ الخلودِ والضَريحْ .

يا زمَناً مُدوَّراً ، وفتنةً قَوامُها الجنونْ ،

وَكُلَّها ، وكلَّها سَماءْ

تَقطَّرَتْ ، تَقطَّرَتْ ،

حَليبُها الضُحى ، ووجهُها الأُفُقْ ،

وَعَيْنُها مَسافةٌ إلى الغَرَقْ . . .

. . . .

-٣-

وبعدَ زمنٍ وَزمنٍ طويلْ ،

بَعْدَ أنْ رأَى الخرابَ ،

أنْ رأَى ،**B52**

وَزَمَناً مُخاتلاً ، رِجالُهُ جِيَفْ ،

نساؤهُ ستارَةُ النوافذ المُذهَّبَهْ ،

أَطفالُهُ يَحضنُها مُختَبَرُ (الجيناتْ) ،

أطفالُهُ مَخلوقَةٌ منَ الهواءْ

بِغَيرِ مَا سَماءْ ، كأَّنَّها تعودُ للعَمَاءْ .

والأرضُ . . . ، والجبالُ سُجِّرَتْ ،

وابتدأَتْ تَسيرْ ،

كأَنَّ طقْساً عاصفاً لأبدَّ أَوْ مَصيرْ . . . . .

وأَرادَ أَنْ تُنهى برغبةِ ساكنيها ،

لنْ يُكرِّرَ رغبةً سَلفَتْ ،

وكانَ النارُ والطوفانُ منها والفَناءْ ،

لا

وأرادَ أن تُنهى برغبةِ ساكنيها ،

وَبِسيرِهِمْ نحوَ المسافةِ بيْنَ بَدْءِ

الخْلقِ واللاشيءْ ،

وَبرغبةِ الجوعِ القديمِ ، ورغبةِ الوَحْشِ

المُقيمِ ، ورغبةٍ في الحَرْقِ والتدميرِ ،

واللحمِ المُقدَّد للصغارْ ،

أرادَ أنْ تُنهى ، وَهُمْ أصحابُ هذي

التَّلة العمياءِ ، والسَفَرُ الظلامُ

إلى النهارْ .

وَتعلَّقَتْ في الأُفْقِ ساعةُ حائطٍ ،

وَالعُمْرُ ، والأرضُ التي شاخَتْ ،

وصاروخٌ تبرمجُهُ (الصقورْ) ،

أَخذَتْ تَنوسُ كَدَقَّة التكوينِ ،

تُعلنُ أنَّ ساعتَها الأخيرةَ

فُرَصةٌ للريحِ والصبواتِ ،

فانتظروا النشورْ . . . .

أبو الزُلُفْ

صاعداً منْ غُبار السّنينْ ،
يَحملُ فأْساً وأُنشوطَةً للخيولْ ،
وَيحملُ أمعاءَهُ وَبقايا الحريقْ ،
وَيحملُ في جُعبَة هَرَّأَتْها الفصولْ :
خُبزَهُ ، وَزُجاجةَ زَيْت ، بَصَلْ ،
بَقايا منَ الجُبنة اليابسَهْ ،
زُجاجةَ ماء منَ النبعِ ، ذاكَ المسافرُ
في جَسَد الأَرضِ ، يُخصِبُها ، لا يَغيبْ ،
وَحلوى منَ التينِ والدبْسِ ،
يَشربُهُ لحظَةَ الإنتشاءْ .
وَيسنُدُ خَدّاً براحته ،
وَجَذعٌ تَرجَّحَ ، يَنقدُّ إذْما انثنى ،
لا يَبينْ .
اللهُ . . يا أيُّها الساحرُ البَهلوانْ ،
اللهُ ، يا مَنْ حَملْتَ الزمانَ ، المكانْ .

جَلَسْتَ ، تَرَبَّعْتَ فوقَ الزهور ،

لعبْتَ بِمزماركَ المُنتَقى منْ قَصَبْ ،

فَجاءَ الثعالبُ والطيرُ ،

جاءَتْ عَصائبُ منْ كُلِّ حَدْب ،

يُدَهْدونَ أُغنيةً ، رَقْصةً ، وَيزدَلفونَ

إليكَ ، تَشدُّهُمْ لحظةٌ منْ طَرَبْ .

اللهُ ، يا أَيُّها الرجلُ ، اللا تقاوَمُ

رَغْبَتُهُ ، ضِحكَةٌ تتصفّى ، وَاشْتهاءٌ

يلوحُ بِعيْنيْه ،

أينَ البحارُ السهولُ الجبالْ ؟؟

وَيَصلُبُكَ الوقْتُ . .

يا أَيُّها الزُلُفُ الشاخَ منْ كثْرة

الركْضِ ، بينَ القُرى وبينَ المُدُنْ ،

وبينَ الكوارثِ والهَرْطَقات ،

وبينَ المكان وبينَ النجومْ .

وَتحلفُ ما زلْتَ . . ما زالَ ظَهرُكَ

مأوَى الصَّبيَّات ، مأوى الحريقِ ،

وَبيْتَ اللَهَبْ .

تَظنُّ العَصا أُفعواناً ، تُراقصُها ،

وتَظنُّ البيوتَ نجوماً فَتمضي ،

تظنُّ السماءَ مَجازات عشْقٍ ،

جَسَدْ . . . تظنُّ الأَراضينَ رُؤْيا

تظنُّ الظنونَ . . . الظنونْ ،

لكَ اللهُ ، قدْ شاخَ ذاكَ الغديرُ ،

المَضيقْ ، وشاخَتْ عظامُكَ ، شاخَ المَصيرُ

وَشخْتَ ولمْ تَتَّعظْ بالخَواءِ ،

بهذا الغُبارْ . .

تُسافرُ !، . . إلى أينَ ؟

وَالبدْرُ مَحْضُ جبالٍ ، ومحضُ غُبارِ

الحديدِ ، وبعْضُ الصَدأْ . . .

تُسافرُ ! . .

والشمسُ قدْ ثقبَتْ خافقاً للغزالِ ،

ارتَمى وَتهجَّى الحروفَ ، وعانقَ أحلامَهُ ،

يومَ كانَ يُطارِدُهُ فارسٌ وَعشيقٌ ،

وأُفْقٌ منَ الماسِ والزعفرانْ .

تُسافرُ !..

هذي السَّماءُ الدُخانْ .

وَما بَعدَها ، قَبلَها ، حولَها ، فوقَها ،

كلُّها ، كلُّها .. مِنْ مَرامِدِ عَينيْكَ ،

مِنْ جُمْجُمَهْ ،

صَوَّرَتْها الشعائرُ ، فاضَتْ عن الفَيْضِ ،

تَظهرُ في كلِّ يوم جديدْ :

مَرَّةً .. عَلَقاً أوْ طَبَقْ ،

مَرَّةً .. غُصَّةً أوْ حُرَقْ ،

مَرَّةً .. عصْمَةً وَجداراً يَشدُّ المَفاصِلَ ،

أوْ بَحراً للغَرَقْ ،

مَرَّةً .. رغبةً وَرغائبَ شَتىَّ ،

تَكدَّسُ في ذا الزمانِ ،

وتأخذُ منْ بعضها ما تَشاءْ ،

وَتَبقى على ساحلِ الأطلسيّ دماءٌ ،

بالمجازرِ- كُلَّما شَخَبَتْ -تُذكِّرُني

والليلِ وَالماوَراءْ

تُذكِّرُني : خَيْمةً وَقُضاةً وفأْساً ورأْساً

على حافةِ النطْعِ يُغرَى بهِ ،

يا ا ا ا ا ا سماءْ .

وَهْيهاتَ ، هيهاتَ يا زلُّفَ الليلِ ،

والأسطرات ، وما يَبتني العاشقونَ

أولئكَ مَنْ طَوَّحَتْهُمْ مَفاصلُ غُربتِهِمْ ،

فانتَهَوا (ثَوْرةً) ،ثورةٌ لا تقومُ بغيرِ الدماءْ .

وَتنادَوْا إلى فتنةِ الوقْتِ والكبرياء

المُزوَّرِ ، والذَوْدِ عَمّا يُسمّى (الهواءْ) ،

وَابتَنَوْا ، وَابتَنَوْا مَعْلَماً شاهداً ،

كاهنٌ يأمُرُ المفاصلَ ، جُوقةٌ للغناءْ .

ثُمَّ . . يا ثُمَّ . . تَمضي ، ويأتي زلُّفٌ

قادمٌ وجديدْ .

ما فيه منكَ ، وما فيكَ منهُ سوى

أحرُف منْ هجاءْ .

ويا غُربةً ، غُربتَيْنِ ، فَطوفانُ نوحٍ ،

وَ (أُوتونبشتم) ، وذاكَ العجوزُ المُغادرُ

(بابلَ) يَمضي إلى (بَيْتِ حَرَّانَ) ،

مُثقلاً بالقيود ، ويَمضي إلى (بيت إيلٍ)

وليداً جديداً ،(لتَلِّ العَمارنَة) الآنَ يَمضي ، ويحرقُ

أسفارَهُ ، زَوجَةً في الطريقْ .

على مفْصَلِ الغيْبِ يَبني قصيداً ،

ويَبني اشتهاءً يُورِّثُهُ عُصبةً قادمينْ .

فَيحملُ كُلٌّ على ظهره إرْثَهُ ويقولُ :

(أبو زلُّف) سيّدي ، وأبي كانَ ، كانَ الفداءْ ،

وأنا إرثُهُ المُصطَفى ، سيّدُ الأرضِ ،

والوقتِ ، والدودِ ، جيفةٌ في الهواءْ . . .

زهرةُ الصباحْ

يَشربُ الزهرُ طلَّهُ ، ثُمَّ يَسكبُهُ

رَوْحاً ، صَباحاً على رُوحٍ فاتنة ،

ضاعَ قرطُها في مَمَرٍّ مَشْتَهُ أمْساً ،

بصُحبةِ ذاكَ الحبيبِ الذي رجَّ أقدارَها

والسَّما والأماني ، وَضاعَتْ على صدرِهِ ،

وانتهَتْ رُوحها في حَناياهُ نَخلةً ،

يا سماءَ المعاني ، اسكبيها دمعةً

قطرةً ، نَهَراً ، أو كتاباً

يَضمُّ بقايا الزمانِ .

عاشقانِ هُما عاشقانِ ،

وَردتانِ ، يُسافرُ ذاكَ العبيرُ بأُولاهما عابقاً

وحنوناً على إلفه، هامساً لغةً

منْ عصافيرَ ، بَوْحَ الكَمانِ .

ويشربُ عاشقَهُ ، فاتحاً روحَهُ وكتاباً

وَكُلَّ حروفِ اللغاتِ ، وما سوفَ يأتي ،

يصوغُ تميمتَهُ ، عشقَهُ وخفاياهُ
منْ حروف البيان .
ادْخُلنْ كعبةً ، واشرَبنْ زمزمَ العشقِ ،
وَاصدحِ الآنَ ، فيكَ منَ المَسِّ
ما يجعلُ الأُنسَ فتنةً للْجان .
يا سماءَ حُزيرانَ في ليلة قَمريَّهْ ،
صَفاؤُكِ يُنعشُها وَردتي ، فَتَموءُ
وَتَخمشُ صدري ،
وَتبني بأدغاله عُشَّها ،
يا سماءُ ، اسكبي رَوْنَقَ الليلِ ،
أوَّلَهُ ، والسكونَ المخيِّمَ ، والبدْرَ
والقراطيسَ كلَّها في يَراعي ،
سأُشْرِبُها كُلَّ روحي ، ثُمالاتِ صَحْوي ،
بقايا قصيدي الذي عفْتُهُ ،
باحثاً ، باحثاً في مَخابىءِ
هَيْكلِها فِتنَتي ،

فَاستراحَتْ على عَرْشها ، واكتويْتُ .
فقلْتُ لنفسي ، سَآخذُ حليَتَها ، بَعْضَها ،
عَلَّها ، علَّها ،
في مُكابدة البحثِ ما بيْنَ بَحْثٍ وعشقٍ ،
وَجمرتُها الكامنَهْ ،
فأصرعُ فيها انشغالاتها الجانبيَّةَ ،
أُشعلُ فيها الذي قد تَرمَّدَ في الوقتِ ،
أوْ في المسافات تَقطعُها سادرَهْ ،
سأَجعلها غيمةً ماطرهْ ،
وأجعلُ روحي هُناكَ على المُلتقى
نخلةً وغزالاً يُراقصُها عابثاً ،
فَتَغْضَبُ ، تبكي، تُجَنُّ ، وتهطلُ ،
تَنزلُ ، حتّى إذا وصلَتْ أوْ تكادُ
إليَّ ، تُحاولُ لَفّي ،
كَما تفعلُ الأُمُّ في طفلها ،
وتُحاولُ أَخذي إلى مَسكَنٍ في

السماء هُناكَ ،

هُناكَ اتخذْتُ من الزهْرِ ، منْ عطرِه

مُتْحَفاً لبنائي الذي شَفَّ ، لا يُرى

فاحتوَتْني، وضمَّتْ صَباباتِها، وانتهَتْ

في صباحِ حُزيرانَ . . دمعةً ،

نصفُها جَسَدي والخيالُ وروحي ،

نَصفُها، كلُّها، كلُّها . . . ،

فَسُبحانَ مَنْ ذَوَّبَ الضدَّ في ضدّهِ ،

الإلْفَ في إلْفهِ ،

الماءَ والنارَ في زهرةٍ منْ تُرابْ ،

يُجسّدها اللهُ مُبدعاً

فَانتشيْتُ . . .

مهرة الجبل

ذاتَ يومٍ كُنتُ أمشي في طريقٍ

مائلٍ ، يَصعَدُ كالخيطِ

إلى ذُروةِ هذا الجبَلِ ،

كنتُ مأخوذاً بهذا الكونِ ، فالأنسامُ

تأتي رئتي، تَملؤُها ،

والسّحْرُ يغزو مُقلي ،

لمْ يكنْ في شُعَبِ الدرْبِ أَحَدْ .

فَجأةً ، في لحظةِ البرْقِ ، انخطافِ

الروحِ ،

هذا الجبلُ الساحرُ ، والغيْمُ ابترادْ ،

بيْنَ مشدوهٍ وسَكرانَ ،

وعَقْلٌ . . جَنَحَ الحُسْنُ ، فأغوى وغواهْ ،

وإذا أُنثى كما المُهرةُ في هذي الطريقْ .

تَتَقدَّمْ . . . خُطوةً يَشربُ من

كوزِ خُطاها الحَجَلُ البَريُّ

أسآرَ الرحيقْ ،

ساعداها غَيمتا مُزْنٍ، وكفّاها سماءْ ،

وبعينيْها غيابُ المشهدِ البحريِّ

والسفحِ ، بعينيْها انتهاءُ الخلْقِ ،

والأسطورةُ الأولى وقاماتُ الضياءْ ،

ولها جيدٌ يَقدُّ القلبَ نصفيْنِ

امتلاكُ المُطلقاتْ ،

تَتَغَنْدَرْ . . .

وحدَها يا قلبُ

في كونٍ من الحُسنِ تَميسْ ،

ووَقفْتْ . . .

مثلَ مشدوهٍ ، وصوفيٍّ ، ومأخوذٍ

إلى ساحة جنٍّ

أتملّى صامتاً هذا القوامْ .

تَقربُ الخطواتُ ، حتّى أسمعَ

الأنفاس والشهقةَ ،

والنهدُ الذي يَطفرُ بالثلجِ يَصِلْ .
تستوي في قامةٍ كالرمحِ ،
عيناها كسهمَيْنِ بصدري وتقولْ :
إنَّ كُلّي لكَ مبذولٌ ، وكلِّي بكَ
مشغوفٌ ، فخذني يا حبيبْ
آه ، يا ربَّ السماءْ .
فتهالكْتُ على الأرض، يدي عُكّازتي ،
لا أعرفُ الوقتَ الْمضى، الطوفانَ ،
والريحَ التي جاءَتْ بها ،
أوْ أخذتْها بعدَ وقْتْ ،
ووقفْتْ . . .
مَرّةً أُخرى أُملّي ناظرَيْ :
جَبَلاً يَملؤهُ الحجَلُ البريُّ
والعطرُ وأنفاسُ الطيورْ ،
إنّما مُهرتهُ البيضاءُ ،
مَنْ ذوّبَتِ الروحَ وغابَتْ ،

أينَ ألقاها وكيْفْ ؟
وإلى وقتيَ هذا باحثاً لمَّا أزلْ
أسألُ عنها وأدورْ ،
في فراغِ الجبلِ المأساةِ ،
ما بينَ الصخورْ . . .

أُنثى المَطَر

كانَ في خُطوتها أُفْقٌ، وأُفْقٌ

حينَ تَرنو أوْ تَميسْ ،

ثَمَّ أُفْقٌ ثالثٌ إذْما تبسَّمْ ،

تَنتهي الآفاقُ في خاصرةٍ تَنقدُّ فوقَ

الردْف ، تَظهرُ مَرَّةً أخرى على

فَخذيْنِ من عاجٍ ، رُخامْ .

ولَها الخلخالُ فوقَ الكاحلِ الثلجِ ،

إذا ما خطرَتْ يَزقو كَما فَرْخُ يمامْ .

وإذا مَرَّتْ على الشارعِ ، أوْ مَرَّتْ

على بَوَّابةِ البازارِ ، والوقْتُ زحامْ .

وقفَ البائعُ والشاري وأبناءُ الحَواري ،

نسْوَةٌ جئْن إلى البازارِ يَعرضْنَ القوامْ ،

صَفَرَ الوقْتُ ، ولمْ يبقَ من الوقتِ

سوى لحظتها المَلآى بتَفجيرِ المسافاتِ ،

وتفجيرِ القلوبْ .

كنتُ كالصوفيّ في يومِ خَميسٍ ،

خارجاً من صَوْمَعَهْ ،

يَرقبُ الآفاقَ والدنيا ، وآياتِ التماهي ،

أوْ علامات الفَناءْ ،

سادراً عن كلِّ شيء ، وأنا في

جَوْلَةِ القلب إلى قُبَّةِ قُدْسٍ ،

أُدْخلُ الأحرفَ في بعضٍ ، وأجلو أحْرُفَ

الإدغامِ أوْ أمسَحُ نوناً للمثَنّى .

يا سماءْ ،

وأنا اشربُ هذي اللحظةَ المُثلى

لشَحْني كَهرباءْ .

وأنا صَيرورةُ الأحرُف في بَوّابةِ

الله أُصلّي، قائماً أُمشي ،

كَما يَمشي عَبيرٌ في الهواءْ ،

وإذا قامتُها الـ . . . لا تنتهي

في الأُفْقِ ، سَدَّتْ كلَّ آفاقي ،

رَمَتْ أَحرُفَ إدغامي وَرائي ،

وابتَنَتْ في مُقْلَتَيْ ، كُلَّ ما لا تنتهي

آياتُهُ ، مِنْ عُنُقٍ أتلعَ في تكوينةِ

الرِئْمِ ، وعَيْنٍ كالسماءْ

خَدُّها كالماءِ والأحلامِ ،

والشَّعْرُ فضاءْ .

خلعَ الصوفيُّ أثوابَ دلالاتٍ ، تَقدَّمْ ،

دائخاً من فَرْطِ ما عانى ،

ومنْ فَرْطِ اجتلاءْ .

قالَ : يا ااا أَنْتِ ، ويا كُلَّ النساءْ .

هلْ أنا في الصَّحْوِ أمْ في الحُلْمِ ،

أمْ في برزَخِ البينيْنِ ؟

أمْ أنّ اختلاءَ الروحِ قدْ أوقعَ

هذا المَسَّ ، قولي ، ثُمَّ قولي ،

أو تَعالَيْ أيُّها التكوينُ ،

كي أدخُلَ في هذا الحضورْ .

أيُّها الأشهى ، ادخلي في روحٍ
صوفيٍّ ، كَما يدخلُ خَيْطُ الإبرةِ
السَّمَّ ، كما يَدخلُ ليلٌ في نهارْ ،
واجعلي هذا الجَّسدْ
كعبةً حتّى أطوفْ ،
فَلقدْ ضِقْتُ بتيكَ الصومعَهْ ،
واحترقْتْ ،
ضَفَّتي ثَكلى وأيّامي امتحانْ .
فَلأجلِ اللهِ لا تبتعدي أوْ ترفضي
إنّي أذوبْ . . .
وإذا ضحكتُها أصداءُ في أصداءِ
منْ صوتِ عصافيرَ وموسيقى شعوبٍ
وفرَحْ ،
وإذا شَعَرٌ كَشلالِ غديرٍ ، غاصَ في
صَدْري ، ونَهْدٌ قدْ سَنَحْ ،
عُنُقٌ سَبْسابُ كالطلِّ بتمّوزِ الصباحْ ،

دخلَتْ رائحةٌ في الصدرِ منها ،

دخلَتْ ضحكتُها ، والريقُ ، والثغْرُ ،

وعيناها اللتانْ ،

ثُمَّ قالتْ :

أنتَ يا صوفيُّ مَنْ حَيّرني ، دَوَّخني ،

أصعَدُ في وقتي ، ولا أعرفُ هلْ

أسطيعُ أنْ أُغويكَ في هذا المَقامْ ؟

أمْ هي الوحدةُ يا صوفيُّ أغوَتْكَ ،

فغبْتْ . . . ؟

حَسْبُ أنْ تبني فراغَ الروحِ

من ذاكَ الخيالْ :

صُوَراً من عالَمِ الرُؤْيا ،

تعالْ ،

فأنا هذا الجَسَدْ ،

وتَعَمَّدْ ،

أيّها المشطورُ من بَرْدٍ ، تَوَقَّدْ .

أيّها الذائبُ كَالسّكَّرِ من حُبّ
تَبَرَّدْ .
أيّها الداخلُ في الرؤْيا مَجازاً
وخيالاً واجتهادات طريقْ ،
فَادخلَنْ هذا الجَسَدْ
واغرسَنْ رُمحَكَ كالنارِ ،
وغبْ في لجَّة البحرِ ،
ابترِدْ ، ثُم احترِقْ ، ثُمَّ ابترِدْ
حتّى تَغيبْ .
أيّها الـ . . . لا تعرفُ الأسماءَ ،
لنْ تعرفَ ، حتّى تَدخلَنْ في
جسد التكوينِ ، هذا جسدي ،
كلُّه فاكهةٌ ، شعْرٌ ، وأحلامٌ ، وأدغالٌ ،
وروحٌ وغَواياتٌ ومَا لا ينتهي
وَصْفٌ، تعال . . .
فَاقتربْتُ كَمَنْ يُقاوِمُ رغبةً ،

وكمنْ يُحاربُ خَصمَهُ ،
وكَمنْ يطيرُ بجانحيْهِ
إلى السماء ،
كَمَنْ يُحقّقُ ما يُريدْ .
ومَسكْتُ ساعدَها ، وخَصْرَ غوايةٍ
والنهْدَ والبلّوْرَ ،
جئْتُ مُحارِباً ومقاتلاً ،
ظَمآنَ ، يا ظمآنُ .
واقتربَتْ ، نضَتْ عنها ، وأسلمَتِ
القيادَ ، وبغّمَتْ ،
ودخلْتُ، يا صوفيُّ حتّى ترجمَتْ ،
. . . وترنّمَتْ ،
وانهدَّ حَرْفٌ في القصيدِ ، فقامَ
منهُ ألفُ فَرْعٍ أخضر ،
وحرقْتُها بالماء ، حتّى كلُّ نار
أصبحَتْ عشباً ، ورمّاناً ، كرَزً ،

وجَلوْتُها ، ورشفْتُها ، وضممْتُها
وغرسْتُ فيها علامتي، نَسلي ،
ومَنْ يأتي ،
وما سوفَ يكونْ . . .

بِذرةُ التكوين

مَرّةً قالَتْ ليَ العذراءُ: يا أَنتَ

الذي في جَوْفِ ليْلٍ لا تجيءْ ،

فَتقدَّمْ يا حبيبَ العُمْرِ ،

إنّي مَحْضُ وَلهى، قدْ تَعاميْتَ

عن الوردِ وعن زهْرِ الحقولْ .

قلتُ يا عذراءُ، والحقُّ أقولْ :

إنّني في مَعمَلِ العالمِ والباحثِ ،

أَجني بِذرةَ التكوينِ من قلبِ الفصولْ .

قالتِ العذراءُ: هلْ بذرتُكَ التَبحثُ

عنها سيّدي من غيرِ أُنثى ،

كيف تُخصَبْ ؟

كيفَ تَنمو أَوْ يَقومُ العشْبُ أَوْ

تَعدو الخيولْ ؟

قلتُ : لا أَعرفُ، لكنْ . . .

رُبّما في الغدِ يا عذراءُ

يأتي الغَدُ . .والعَامُ ،

وَيمشي بي قطارٌ خائنٌ، لا يعرفُ

المُهلَةَ والراحةَ، يَمشي مِثْلَ وَعْلٍ

فوقَ صخْرٍ في فضاء من طلولْ .

وأنا أرقُبُ عذراءَ الحقولْ ،

علّها تأتي وَلَوْ عبْرَ خَيالٍ

أوْ حُلُمْ .

بِذرةُ التكوينِ ضاعَتْ في فَيافي

الرملِ، والعُمرُ مَضى ، والشَّيْبُ جاءْ .

لم أعُدْ أحلُمُ بالعذراءِ بَعْدُ ،

قلتُ: لا بُدَّ من الكشفِ الجماعيِّ

ومنْ بحْثٍ مع المرأةِ عن بذرةِ

تكوينٍ جديدةْ ، تحملُ الأُنثى بها ، وَتغذّيها دماً

كالجلّنارْ ، تَكبُرُ البذرةُ تكوينياً وخَلْقاً وضياءْ ،

تَبتني هذا الفضاءْ .

بَيْت

عتيقٌ يقومُ على ربوةٍ ،

تأسَّسَ في بيْت شعْرٍ قديمْ .

يقولُ القصيدُ المُسافرُ في رقبةِ الحَرْفِ :

هذا الجميلُ، نوافذهُ كهرمانٌ ،

وأبوابُهُ مِنْ ذَهَبْ .

يقولُ الذي نامَ على صَهْوَة :

إنّهُ مَسْكَنُ الجانِ، فالريحُ تعولُ ،

تفتحهُ نافذةً، نافذةْ ،

وأنا لا أُطيقُ الدخولَ، وإنْ كانَ

رُمحي طويلاً، وسيْفي يقدُّ الحديدْ .

ويصرخُ ذاكَ المُسافرُ في وحشةِ

الليلِ، حين يرى نجمةً فوقَهُ ،

أوْ سراجاً، يُطوّفُ حولَ الذُبالةِ

جَمْعُ الفراشات، يَعْمُرُها خاشعاً ،

لِيدخلَ قَبْراً، يُؤسّسُهُ في اللَهَبْ :

إنّهُ منزلٌ مُقفرٌ، منزلٌ عاقرٌ ،

منزلٌ دهشَةَ، إنّهُ . .

إنّهُ واحةٌ يَستريحُ بها نُزُلٌ آيِبونَ ،

ونُزُلٌ أدمنوا السَّيْرَ ليلاً إلى

لا نهاياته، فاتحينَ المسافةَ ،

كالشقّ في جُبَّة باليةْ ،

سأنزلُ واحتَهُ آمناً ، أوْ يُعبّؤني

الخوفُ لُغزاً ، على مَفرق الرأسِ يَبقى

علامةَ مَنْ باتَ ليلتَهُ بَيْنَ بَيْنيْنِ ،

شَوْكٌ بداخله كالقَتاد ،

وشوكٌ بخارجه كالحراب ،

ولَيْلٌ يغوصُ به المُدْمنونَ ،

وتَمضي الحِقَبْ . . .

. . . . . .

وينزلُ في أوّلِ المُفْتَرَقْ

فارسٌ قادمٌ كالحريقِ، تؤَسّسُ قامتَهُ

خطوةٌ باتّجاهَ الخيال ،

وأُخرى إلى أَمَلٍ مُرتَقَبْ ،

خُطوتانِ إلى غايةٍ لا تخيبْ .

ويمضي ،

أناملُهُ جُذوَةٌ، صَدْرُهُ قُبَّةٌ للحمامِ ،

وروحٌ مَعاريجُها في السماءْ .

ويحملُ قلْباً صراطاً لمَنْ سوفَ يأتي ،

يُشيرُ إلى الفتنة الواقفةْ :

إنّني داخلٌ، فاَكشفي كوكباً ،

وَاخلعي ثوبَكِ المخمليَّ، سأَحرقُ

نَفْسي إذا كانَ شيءٌ يُغطّيكِ

يا فتنتي المَرْمَرِيَّةْ .

وَيصرخُ ،

حتّى لَيَسْمَعُها قادمةْ .

قادمةٌ كالنسيمِ، وقادمةٌ كالسماء ،

وقادمةٌ كَالإلهةِ، تُخصِبُ كُلَّ المَمَراتِ

إنْ لامَسَتْها ،

وَينبتُ من خطوَتَيْها العُشُبْ .

وَيبسُمُ حين يُشاهدُها هازئاً بالزمانِ

الذي ضاعَ، حتّى تمكّنَ من مستحيلٍ

يلوحْ .

تَقَدّمَ في خفّةِ القطِّ، في حَذَرِ

القرْد ،

في عَقْله الآدميّ الذي خَلَقَ

المُعجزات، تقاسَمَها الناسُ عهداً ،

زماناً، وساروا إلى غايةٍ ثانيةْ .

وكانَ على مفرقِ الرأسِ بعضُ المشيبِ ،

وبعضُ النُقَطْ ،

تُسَقْسِقُ منْ صدْغهِ إلى ذقنهِ، إلى

أرضهِ الأمّ ،

حوّاؤُهُ قادمَةْ . . .

يُخاصِرُها، ثُمَّ يَرفعُها كالكتابِ ،

وَيقرأُ فيها الغَوايَةَ والوصْلَ ،

يقرأُ فيها الشَفَقْ ،

يُؤَسّسُها قامةً منْ حَبَقْ .

وَيرسُمُها في الحَدَقْ ،

وَيبقى مُخاصرَها ساعةً، ساعتَيْنِ ،

ويترُكُ بيتاً (مَجازاً) على ربوةٍ

في الخيالِ، ليبني، وَيبني بها

بيتَهُ الآدميَّ الحنونَ الجَسَدْ . .

فَما زالَ قَبْرٌ هُناكَ يقولُ لزوّاره :

إنّهُ الفارسُ المؤسّسُ والفَحْلُ ،

ذاكَ الذي اقتنصَ الفاتنهْ ،

وابتَنى، وبَنى في مَفاصلِها

خصبَةُ والذراري ،

وَعَلَّمها الفعْلَ والقولَ والمُفرداتِ

التي سوفَ تظهرُ ،

علَّمها أنْ تكونْ . . .

فَقامَتْ إلى السَهْلِ تَفلَحُ، تَزرعُ ،

تَحصدُ ،

ثُمَّ ما بيْنَ نورٍ يلوحُ، وما بينَ

ليلٍ حَرونْ ،

تسيرُ على شَفَةِ الجَمْعِ

سيرةَ ذاكَ الأبِ المستحيلِ

الظُنونْ . . .

بِئْر

وَأَمتَحُ مِنْ بِئري العميقِ، وأَشربُ

هذا النميرَ المُعتّقَ كالخمرِ ،

أَصعدُ، حتّى أُعانقَ شمْساً هناكَ

على جَبَلٍ من حروفِ الهجاءْ .

أُصَيّرُ جُمجمَتي وَردةً، وأَخزنُ فيها

العبيرَ الذي جاءني من جزائرَ في البحْرِ .

أَبعثها في بريدِ الصباحِ لـ (طلْعتَ)(١)

يَمضي إلى المدرسةْ .

وطلعتُ هذا التمُّردُ، ذو الصوتِ

يُخرجُهُ كالحسامِ من الغمدِ ،

أُختاهُ ترتبكانِ من الخوفِ والحُبّ ،

تصرخُ كُبراهُما: أنتَ يا . . .

فَيبعَثُها ثَغرُهُ: ضحكةً، قهقهاتٍ ،

وَيدلفُ غرفتَهُ مُفعَماً بالضياءْ .

---

(١) طلعت: نجل الشاعر الأصغر..

وطلعتُ هذا انبعاثُ القصيدةِ، والكبرياءُ
وَبَدْءُ التصوُّفِ ،
هذا الصغيرُ الذي وصلَ العاشرةْ .
إنّهُ، إنّهُ مخزَنُ الحُبّ، والعطْفِ ،
يَسعى إلى أُمّه كَما يَفعلُ الأولياءُ ،
يُقبّلُها، مُحْدقاً في مَغاورِ عَيْنيْها ،
ويَمضي إلى لُعبةٍ في زوايا المكانِ ،
وَمنها لسجّادةٍ للصلاةْ .
يُصلّي
فأَسمَعُ في البيْتِ أبعادَ روحي ،
وَعُمْقَ الكرامات ،
فَالرُسُلُ الطيّبونَ يَهلّونَ مُستبشرينَ ،
فَأُصغي بِصَدْري، وأُغلقُ أُذنيَّ عَمّا
يُلوّثُ روحي منَ الصَخَبِ الدنيويّ ،
لأَسمعَ ترتيلةً من لُغاتٍ مضَتْ ،
وَلُغاتٍ تقومُ إلى فجرِها باسمهْ ،

وأسمعُ صوتاً يُسربِلُهمْ أجمعينَ

بحُفنة عطرٍ، وحفنةِ ترْبٍ ،

وحفنة ماءْ .

فأُدركُ، أُدرِكُ أنّي دخلْتُ السماءْ .

وطلعتُ هذا الشقيُّ اللعوبُ ،

الحزينُ الغضوبُ، الشديدُ البُكاءْ .

يُصعّدُ حَنجرةً في الأعالي، ويبعثُ

مزمارَهُ في رياحِ المكانِ ،

فيُغوي الفراشات، يُغوي العصافيرَ ،

يُغوي الحجارةَ، قدْ كوَّمَتْها يَداهُ ،

ليعبثَ، يصنعَ بيتاً وسُوراً ،

وبعضَ الرموزِ التي يَرتئيها ، وتفّاحةً

في حديقته، سَروةً في الهواءْ .

وطلعتُ، يا طلعتَ القلب، هذا يُذكّرُني

بالبعيد ، البعيد فيبعثُ فيَّ امتداداً ،

ويَجعلُني الكوخَ، يأوي إليهِ الصغارُ ،

الفراشاتُ، والقبَّراتُ ،

اتّقاءَ الشتاءْ .

فأَمتحُ من بئرِ روحي قصيداً ،

يُعتّقُهُ اللهُ ،

أَجعلهُ في الطريقِ ليشربَ منه ،

الصغيرُ، الكبيرُ، الشقيُّ، الوديعُ ،

القبيحُ، الجميلُ ،

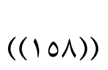
وكلُّ الذي سوفَ يأتي من الأرضِ

يَفترشُ التُرْبَ مهداً ،

وَيبني السماءَ مظَلَّةْ ،

فَيشربُ، يشربُ، يشربُ ،

حتّى ارتواءِ النخيلْ . . .


((١٥٨))

الفهرس

مزمور الليل والعماء:

١ -نجوم ٧
٢ -جمجمة ١١
٣ -ظهور ١٥
٤ -الابن المدلل . . . ١٩
٥ -عميد الشعراء . . ٢٢
٦ -نفاق ٢٥
٧ -مُعلق ٢٧
٨ -بوق ٢٩
٩ -المختار وزوجه . . ٣٠
١٠ -مصير كلب . . ٣٢
١١ -مسيرة قاض . . ٣٦
١٢ -الوزير"كبير" . . ٤٠
١٣ -الليلة الأخيرة . . ٤٤

مزمور الهزيع الأخير

١٤ -الصَحَف . . . ٤٩
١٥ -المقبرة ٥٤
١٦ -رجلان ٥٨
١٧ -بوّابة ٦١
١٨ -سرير الأرملة . . ٦٥
١٩ -كناس ٦٨
٢٠ -الخبز ٧٢
٢١ -اكتشاف النار . ٧٥
٢٢ -قارئ الكف"ورّاق" ٧٩
٢٣ -المهرّج"كشتبان" ٨٢
٢٤ -الفأرة والهرّ . . ٨٥

مزمور التباس التكوين:

٢٥ -تأشيرة خروج . ٨٩
٢٦ -مسألة ٩٢
٢٧ -شارع ٩٤
٢٨ -جنازة ٩٦
٢٩ -في المحطة الأسيوية ١٠٠
٣٠ -وجه ١٠٣
٣١ -ليلة سمر . . . ١٠٩
٣٢ -الأسفار ١١٥
٣٣ -أبو الزُلف . . . ١٢٤
٣٤ -زهرة الصباح . . ١٣٠
٣٥ -مُهرة الجبل . . ١٣٤
٣٦ -أنثى المطر . . ١٣٨
٣٧ -بذرة التكوين . ١٤٦
٣٨ -بيت ١٤٨
٣٩ -بئر ١٥٤

صدر للمؤلف:

مستقبل الربيع " شعر "

مسارات الوجع " شعر "

العالم هذا المساء " شعر "

الأوراق وحِبْر المعلّقات " شعر "

عبد الله الكويفي " رواية "

فاطمة " رواية "

أبناء زاهي " رواية "